الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية

في وادي النطرون

كما صوَّرها الرحالة

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية في وادي النطرون كما صوَّرها الرحالة

شهد مجتمع وادي النطرون - خلال فترة الدراسة- تطورًا في بعض جوانب الحياة الاجتماعية من قبيل تطوُّر عدد السكان وترتيبهم الاجتماعي والتعليم والثقافة، مع الحفاظ على بعض الموروثات الاجتماعية التي تستمد جذورها من الماضي السحيق مثل العادات والتقاليد والاحتفال بالمناسبات الاجتماعية والدينية، وقدم لنا الرحالة الزائرون لمصر ولوادي النطرون وصفا دقيقًا للحياة الاجتماعية، وإن كان هذا الوصف لا يخلو من التقصير، وربما يرجع ذلك إلى قصر المدة الزمنية التي قضوها في الوادي، وهذا ما سوف نوضِّحه في هذا الفصل.

التطور السكاني في وادي النطرون:

اتجاهات النمو السكاني:

في خلافة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣ هـ/ ٦٣٤-٦٤٤م) دخل العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص، وكان عدد سكانها وقتئذ لا يقلون عن الثلاثين مليون نسمة، إن لم يبلغوا الستة والثلاثين مليون نسمة، نظرًا لأن الجزية التي جباها العرب من الأقباط عند دخولهم بلغت نحو ستة ملايين نسمة إلى سبعة ملايين من الذكور البالغين دون سواهم. وإن كان غير المعلوم بالدقة مقدار العدد الحقيقي الذي كان يسكن مصر في ذات الفترة، إلا اننا من خلال عمران البلاد وقيام أهلها بالعديد من الأعمال ونهضتها العلمية قبل سواها. كل ذلك نستدل منه على ما كانت عليه من كثرة السكان ومن المعلوم أن مصر منبت التمدن والعلم والعرفان، ولذلك سادت على كل المسكونة، وعلمت العالم واخضعته لها. لا بمجرد القوة فقط، بل بما كانت عليه من المدينة والرقي، فابتنت المباني الفاخرة التي عاشت كل هذا الزمان تصارع الدهر ولم يقوَ على أن يصرعها[1].

(١) جرجس فيلوثاؤس عوض: القبط- الكتاب الأول في تعداد القبط أمس واليوم، طبع بالمطبعة المصرية الأهلية الحديثة، القاهرة ١٩٣٢م، ص٣٣.

وقد قدر القنصل الفرنسي الموسيو مايبه Maillet عدد سكان مصر في عام ١٦٩٢م بنحو أربعة ملايين نسمة، وفي عام ١٨٠٠م قدر بنحو (٢٠٠٠٠٠٠) نسمة[١]، بينما قدر علماء الحملة الفرنسية عدد سكان مصر في نهاية القرن التاسع عشر بحوالي ٢,٤٤٩,٠٠٠ نسمة[٢] ولكن كلوت بك بعد ذلك طعن في هذا التقرير، ورأى أن عدد سكان مصر، في أثناء الحملة الفرنسية لم يكن يزيد عن مليوني نسمة[٣] بينما كان عدد سكان الوادي لا يربو على ألف نسمة، ومن المتعذر، بل المستحيل الرجوع بهذا الرقم إلى سند صحيح وبيان مضبوط لعدم وجود نظام تضبط بمقتضاه الأحوال المدنية لكل فرد من الأهالي، كما أن السكان كانوا يخشون التعاون في مجال التعداد لأمور تتعلق بالتقاليد من ناحية ومن ناحية أخرى خشية التعرض للضرائب[٤].

ويرجع تدهور النمو السكاني في وادي النطرون في أوائل القرن التاسع عشر إلى الأسباب التالية:

أولًا- كثرة اعتداءات العربان على الأهالي مما أدى إلى الهجرة من الوادي إلى الدلتا والإسكندرية[٥].

ثانيًا- عودة العاملين (الهجرة الموسمية) باستخراج النطرون إلى مواطنهم الأصلية بعد انتهاء موسم استخراجه وتجارته[٦].

ثالثًا- زيادة أعداد الوفيات بين سكان الوادي نتيجة لاستخدام الأساليب البدائية في علاج المرضى، وكثرة أعداد القتلى بسبب الصراع الدائم بين العربان والأهالي[٧].

---

(١) نفسه: ص ١٦٨.

(٢) سمير عمر إبراهيم: الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٣.

(٣) كلوت بك: المرجع السابق، ج١، ص ٣٧٧

(٤) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج٢، ص ٤٥-٤٧.

(٥) محافظ الأبحاث: محفظة ١٤٠، وثيقة ١٤٠، من الجناب العالي إلى وكيل الديوان الخديوي، ٥ صفر ١٢٦٩هـ/ ٣١ ديسمبر ١٨٤٨م.

(٦) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج٢، ص ٤٩.

(٧) مديرية البحيرة: س ٢٨١، صادر فروع إلى سر سواري خليل أغا، وثيقة ٧٣، ٢٤ محرم ١٢٦٨هـ/ ١٩ نوفمبر ١٨٥١م، ص ٤٧٤.

على أية حال، راحت معدلات النمو السكاني لسكان وادي النطرون تتزايد تزايُدًا مستمرًّا منذ أن تولى محمد علي حكم البلاد، وربما يرجع ذلك إلى اهتمام الباشا باستخراج وتكرير وتجارة النطرون[١] وتوطين البدو وتشجيعه الهجرة إلى الوادي لتملك الأراضي، أو العمل بصناعة الزجاج أو التجارة[٢] كما أن النهضة الصحية التي شهدتها البلاد في تلك الفترة ساعدت على النمو السكاني[٣]، ولو أن الطاعون الرهيب الذي تفشى في عام ١٨٣٥م قد أشاع الموت والدمار بين سكان الوادي أكثر من أي مكان آخر، مما أثر في معدلات النمو السكاني، وإن كانت لا توجد لدينا بيانات دقيقة بعدد حالات الوفيات، وربما يرجع ذلك إلى الإهمال الصحي في جانب الأهالي لتمسكهم بالعادات والتقاليد البدائية[٤].

ولَمَّا كان تعداد السكان يعتمد على الحدس والتخمين، وكان محمد علي يهتم اهتمامًا شديدًا بزيادة عدد السكان لكي يكونوا عونًا له في تكوين جيش قوي أو كمصدر لجمع الضرائب فإنه قد أصدر أمرًا إلى عموم جهات القطر المصري في ١٣ من ذي القعدة سنة ١٢٦١هـ/ ١٣ نوفمبر ١٨٤٥م بالشروع في تعداد أهالي القطر، بناء على قرار الجمعية العمومية بديوان المالية[٥].

ولذلك عمل محمد علي على تعبئة البلاد لإجراء التعداد السكاني للبلاد، بإصدار أوامره إلى العمد ومشايخ قبائل العربان، يحثهم فيها بإنهاء التعداد الصادر، وهدد كل من يخالف الأوامر

---

(١) ديوان شورى المعاونة: محفظة ١٩، ملخصات دفاتر، دفتر ٢٨٤، وثيقة ١٣٧٣، ٢٢ شوال ١٢٥٧هـ/ ٧ ديسمبر ١٨٤١م، ص٢٢.

(٢) محافظ الأبحاث: محفظة ١٤٠، دفتر ١٩٢٣، صادر أوامر، صورة الأمر الكريم رقم ٤٩، ٦ ذو القعدة ١٢٨٣هـ/ ١١ إبريل ١٨٦٧، ص ٧٠.

(٣) محافظ عابدين: محفظة ٥٩، وثيقة ١٨، ١٥ محرم ١٢٥٦هـ/ ١٩ مارس ١٨٤٠م.

(٤) ديوان معية سنية عربي: محفظة ٤٥، وثيقة بدون رقم، ٢٤ صفر ١٢٥١هـ/ ١١ يونيو ١٨٣٥م، ص ٩٠.

(٥) تعداد نفوس: س رقم ١٥٤، ل/ ٩/ ٧٩/ ١٤٥، سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧؛ مديرية البحيرة س ٨٣٥، وارد البحيرة إلى سايرة، وثيقة ٢٧٨، ١٧ رمضان ١٢٦٤/ ١٧ أغسطس ١٨٤٧م، ص ١٢٤١؛ انظر: ملحق رقم (٢١)، ص٢٧٤.

أو يعطي أي بيانات غير دقيقة بأشد العقاب، كما ألزم حفيده عباس كتخدا باشا بالإشراف العام على إجراء التعداد السكاني[١].

على أية حال، جاء تعداد سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م مؤشراً على ارتفاع معدلات النمو السكاني بوادي النطرون، فبلغ عدد سكان الوادي ٦٥٢٤ نسمة من الإجمالي العام للقطر المصري البالغ ٤٤٧٦٤٤٠ نسمة، ويرجع ذلك إلى استتباب الأمن وزيادة توطين البدو واستقرار وعدم هجرة الأهالي وزيادة معدلات الهجرة السكانية إلى الوادي[٢].

وقدر «كولوتشى باشا» في احصائه عدد سكان مصر في عام ١٨٥٥م بنحو (٤٤٠٢٠١٣) نسمه، أما المسيو «رينيه» فقدرها عام ١٨٧٢م بنحو (٥٢٠٣٤٠٥) نسمة، بينما الدكتور «روسى بك» قدرها عام ١٨٧٥م بنحو (٥٢٥١٣٨١) نسمه، اما الموسيو فوجاني Vojani فقدرها عام ١٨٧٦م بنحو (٥٥٢١٦٣١) نسمه، وفي عام ١٨٨١م وصل عدد السكان نحو (٦٨٢١٤٢١)نسمة، بينما وصل العدد في عام ١٨٩٧م (٩٧٣٤٤٠٥) نسمة، وفي عام ١٩٠٧م بلغ عدد السكان (١٢٧١٨٢٥٥) نسمة، بينما في عام ١٩١٧م وصل عدد السكان إلى نحو (١٢٧٥٠٩١٨) نسمة، ووفقا للتعداد الرسمي لمصر لعام ١٩٢٧م مصر بلغ عدد السكان نحو (١٤١٧٧٨٦٤) نسمة[٣].

على أية حال، شهد وادي النطرون – في النصف الثاني من القرن التاسع عشر– تدفق المهاجرين المصريين والأجانب إليه وخاصة في الستينيات نتيجة للفرص المالية الكبيرة التي ارتبطت بازدهار تجارة النطرون والقطن ومشروعات التنمية والعمران وشبكة النقل والمواصلات والرعاية الصحية والاجتماعية التي أدخلها الخديوي إسماعيل، فارتفعت معدلات النمو السكاني، فبعد أن كان عدد سكان الوادي يقدر بنحو ٦٥٢٤ نسمة في عصر محمد علي، بلغ ٨٨٣٣ نسمة عام ١٨٨٢م، كما يتضح من الجدول التالي:

---

(١) أمين سامي: المرجع السابق، ج٢، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٢) تعداد نفوس: س رقم ١٧٩، ل/ ٩/ ٧٩/ ١٥٤، كفر داود، قسم النجيلة، سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م؛ نفسه س ٢٧، ل/ ٩/ ٧٩/ ٢٧، سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م.

(٣) جرجس فيلوثاؤس عوض: المرجع السابق، ص ١٦٨.

جدول (١/ ٥)

عدد سكان وادي النطرون [١] لسنة ١٨٤٧/ ١٨٨٢م [٢].

م	اسم الناحية	١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م			١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م			نسبة الزيادة	ملاحظات
		ذكور	إناث	جملة	ذكور	إناث	جملة		
١	الطرانة	٥٩١	٦٠٠	١١٩١	٦٩٣	٦٣٨	١٣٣١	٪١٢	بالإضافة لتعداد الأديرة الأربعة
٢	عزبة الطرانة	٢٣	٢٢	٤٥	٧٤	٥٥	١٢٩	٪١٨٧	
٣	كفر داود	٧٢٦	٧٠٥	١٤٣١	١١٨٣	١١٣٣	٢٣١٦	٪٦٢	
٤	الخطاطبة	١٧٧	١٦٧	٣٤٤	٣٢٨	٣٣٠	٦٥٨	٪٩١	
٥	البريجات	٩٠٨	٩١٠	١٨١٨	١١١٦	١١٧٢	٢٢٢٨	٪٢٦	
٦	الأخماس	٤٩١	٤٧١	٩٦٢	٦٠٣	٥٥٢	١١٥٥	٪٢٠	
٧	أبو نشابة	٣٦٩	٣٦٤	٧٣٣	٤٧٣	٤٨٣	٩٥٦	٪٣٠	
جملة النواحي		٣٢٨٥	٣٢٣٩	٦٥٢٤	٤٤٧٠	٤٣٦٣	٨٨٣٣	٪٣٥	

(١) خارج هذا التعداد بعض القبائل من العربان، وبعض النواحي مثل بني سلامة، وزقيق، والهوكرية، لعدم وجود سجلات؛ انظر: ملحق رقم (١٩).

(٢) المصدر: سجلات تعداد النفوس، أرقام ٢٤، ٢٥، ١٧٩، ٢٠٨، ٢٦١، ٢٧٥، لسنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م، وزارة المالية، مصلحة الإحصاء، تعداد سكان القطر المصري، ج٢، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م؛ انظر: ملحق رقم (١٩).

ومن هذا الجدول نستطيع أن نقسم قرى الوادي إلى ثلاث كثافات سكانية طبقًا لتعدادي سنة ١٨٤٧م، ١٨٨٢م، المجموعة الأولى وتضم قرى مرتفعة الكثافة السكانية جدًّا وهي كفر داود والبريجات، وتأتي بعد ذلك المجموعة الثانية وتضم القرى المرتفعة الكثافة السكانية، تضم الطرانة والأخماس، أما المجموعة الثالثة فتضم قرى قليلة الكثافة السكانية وهي أبو نشابة وعزبة الطرانة، كما يتضح ذلك من خلال الرسم البياني التالي[1]:

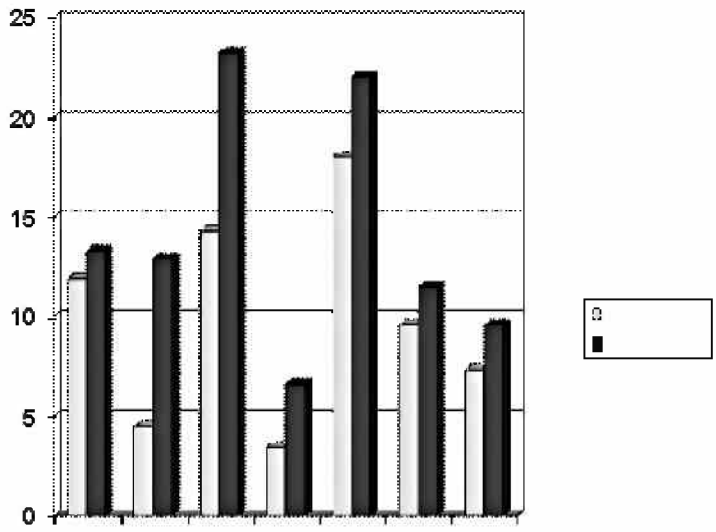

ونستنتج من الرسم البياني السابق- مدى ارتفاع الزيادة السكانية في كل قرى وادي النطرون في سنة ١٨٨٢م عنه سنة ١٨٤٧م، كما نلاحظ ارتفاع معدلات النمو السكاني بصورة أكبر في كل من كفر داود، والبريجات، وعزبة الطرانة، بينما تنخفض معدلات النمو السكاني بصورة أقل من السالفة الذكر، في أبي نشابة، والأخماس، والخطاطبة والطرانة، وربما يرجع ذلك إلى اختلال في معدلات الزيادة الطبيعية.

(١) المصدر: سجلات تعدد النفوس أرقام٢٤، ٢٥، ٢٧، ١٧٩، ٢٠٨، ٢٦١، ٢٧٥، لسنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م، مصلحة الإحصاء- تعداد سكان القطر المصري، ج٢، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م.

وفي تلك الفترة (١٨٨٢-١٩١٤م) زادت معدلات نمو السكان بوادي النطرون حتى كان يربو عددهم إلى نحو أكثر من عشرة آلاف نسمة طبقًا لإحصاء عام ١٨٩٧م، ويرجع ذلك إلى استتباب الأمن وإنشاء المؤسسات الصحية وتطعيم الأهالي ضد الأمراض وزيادة تيارات الهجرة الداخلية والخارجية إلى الوادي، بالإضافة إلى إقامة المشروعات التنموية مثل شركة الملح والصودا، والشركة المساهمة للري واستصلاح الأراضي؛ والتي استوعبت العديد من الأيدي العاملة المهاجرة، وانتهت باستقرارها، فزاد ذلك من معدلات النمو السكاني بوادي النطرون[١].

وفي أوائل القرن العشرين زار أوديون Odion وادي النطرون وتناول من خلال مذكراته بعض جوانب الحياة الاجتماعية من حيث تدهور الأوضاع المعيشية لسكان وأديرة الوادي[٢].

التطور العمراني:

أجمع بعض الرحالة الزائرين لوادي النطرون على تدهور الأوضاع الاجتماعية وقلة المناطق العمرانية، ولم يذكر الرحالة إلا الأديرة القبطية المنتشرة في برية شيهيت، وبعض المناطق العمرانية فذكر الرحالة جون جاردنر ويلكنسون الذي زار وادي النطرون مصنع الزجاج القديم، وبيت زجاج الكولونيل ليك الذي يرجع تاريخ إنشائه إلى العصر الروماني[٣]، وربما أدى وجود مصنع الزجاج إلى نشأة قرية زاكيك، بينما اهتم الرحالة قسطنطين تشيندورف بتناول الخرائب الذي شاهدها ودونها في مذكراته[٤]. وأكدت بعض الوثائق على الأهمية الاقتصادية لمدينة الطرانة التي أصبحت في العصر العثمانى ولاية تابعة مباشرة للسلطان العثمانى؛ ولذلك شهدت تطورًا في النشاط الاقتصادي والعمرانى ولقيمتها وموقعها الجغرافي ارتفعت بها الكثافة السكانية، وهذا ما أكده الرحالة الزائرون لوادي النطرون [٥].

---

(١) محافظ مجلس الوزراء: نظارة الداخلية، محفظة ٢/ ١٠/ ج، مذكرة الداخلية بشأن الصحة العامة، ٢٣ يوليو ١٨٨٤م.

(2) Odion: Notes about wadi El Natrun factuality of soilhaull Birmingham university , England, 1999.

(3) https://de.wikipedia.org/wiki/John_Gardner_Wilkinson.

(٤) هيوج.ج. إيفلين هوايت: المرجع السابق، ص١٧٨-١٧٩.

(٥) المصدر: محكمة جامع الحاكم، سجل ٥٧٣، مادة ١٢٧٥، بتاريخ ١٢ ربيع أول ١١٢١هـ/ ٢٢ مايو ١٧٠٩م، ص٤٩٠.

على أية حال، شهد وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر تطورات هامة، لعل من أبرزها ذلك النمو الذي شهدته الطرانة، بعد أن توسع محمد علي في تنظيم تجارة النطرون، وسهولة تصديره للخارج عن طريق مدينة الإسكندرية على أثر حفر ترعة المحمودية ١٨٢٠م، فتحولت إليها التجارة الخارجية، وزاد من نمو الطرانة في عصر محمد علي إقامة مصنع لتكرير النطرون، وقيام التجار الأجانب باتخاذها مركزًا لنشاطهم[١].

كما لجأ بعض السكان الأصليين للطرانة في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى هجرتها لازدحامها، وأقاموا بجوارها، وسرعان ما شكلت هذه التجمعات السكانية عزبة الطرانة، وأصبحت ناحية قائمة بذاتها ولها وحدتها المالية، وتعرف بعزبة ميخائيل بك منقريوس[٢].

كذلك كان تشجيع الدولة للبدو على التوطن والاستقرار عاملًا في نمو قرى الوادي، ومن ذلك تضاعف الاتساع العمراني لقريتي البريجات والأخماس لكثرة توطن العربان بهما[٣].

كما لعبت سكة حديد وادي النطرون – الخطاطبة التي أنشئت في أواخر القرن التاسع عشر دورها في نشأة قرية الهوكرية التي ازدهرت واشتهرت بصناعة الصابون والزراعة لوجود آبار المياه الجوفية[٤] ونمت واتسعت الخطاطبة بفضل سكة حديد الوادي[٥].

---

(١) مديرية البحيرة: س ٣٢٥، صادر الفروع إلى ناظر العربان، وثيقة ٢٠٣، ٢ ربيع أول ١٢٧٠هـ/ ٣ ديسمبر ١٨٥٣م، ص ١١٢.

(٢) محكمة البحيرة: س ١٨٥، م ٥، ٤ ربيع الثاني ١٣٠٥/ ١٣ ديسمبر ١٨٨٧م، ص٦.

(٣) محافظ الأبحاث: محفظة ١٤٠، دفتر ٥٢٦، أوامر كريمة، أمر رقم ٧، ٦ شعبان ١٢٧٩هـ/ ٢٧ يناير ١٨٦٣م، ص ٢٢.

(٤) مجلس الوزراء: شركات وجمعيات: محفظة ١٧٠، مجلس الوزراء، بخصوص إنشاء شركة الملح والصودا، ١٩ إبريل ١٨٩٩م.

(٥) مخطوط دير السريان: مخطوط رقم١٣١٩١،تاريخ البطاركة، الجزء الثاني،نسخ القمص داود مرقس حناوي، بتاريخ ١٦٥٣ ش/ ١٩٣٦م، ص ٦٤٤.

كما أكد الرحالة إيفلين هوايت اتساع عمران عدة قرى في أواخر القرن التاسع عشر، كانت في بداية ذات القرن عبارة عن تجمع أسرى مثل قرية بني سلامة التي تقع بالقرب من دير أبو مقار، وقرية زقيق (زاكيك) التي تقع جنوب شرق دير البراموس[١]. وكذلك نمت أديرة وادي النطرون في أواخر القرن التاسع عشر، واتسعت مساحتها بجوار الأديرة وأقيمت المشروعات عليها، ولم تقف حدود الأديرة عند حدود أسوارها الأساسية[٢].

وإشارت الوثائق وويلكنسون Wilkinson على أن الاتساع العمراني اشتمل وادي النطرون في تلك الحقبة، على مد الطرق البرية والنهرية والحديدية، فمن الطرق البرية التي مدت في تلك الفترة الطرق ما بين الخطاطبة والطرانة والأخماس، وطريق الطرانة الوادي، ومن الطرق النهرية التي ازدهرت تلك الطرق التي تفرعت من الطرانة إلى بولاق بالقاهرة، ورشيد والإسكندرية عبر ترعة المحمودية، أما السكك الحديدية فقد تم إنشاء طريق الخطاطبة – الوادي[٣].

كذلك شقت الترع والرياحات والقناطر، فكان من الترع ترعة المحمودية والخطاطبة والبحيرة، ومن القناطر قناطر البريجات والأخماس، ومن الرياحات الرياح البحيري، كما حفرت الآبار مثل آبار الهوكرية وبني سلامة وأديرة الوادي[٤].

واعتمدت قرى الوادي القريبة من النيل في بنائها على الطوب اللبن أو الأحمر الذي يصنع بالقرية، بينما اعتمدت القرى الحافة بالصحراء أو الواقعة بها في بنائها البنية الأساسية على الأحجار والجير الموجودة بها[٥].

---

(١) هيوج.ج .إيفلين هوايت: المرجع السابق، ج٣، ص ١٧٨؛ أنطونيوس الدويري: المرجع السابق، ص ١٩.

(٢) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ٤٨٣، ١٩ إبريل ١٨٩٥م.

(٣) الوقائع المصرية: عدد ٥٦، ٢٨ ربيع أول ١٢٦٤هـ/ ٢٧ سبتمبر ١٨٢٩؛

انظر: شكل رقم ١، ٢، ٣ ;Wilkinson, J. G: Op. Cit. P. P. 223- 229

(٤) محافظ الأبحاث: محفظة ١١٩، معية تركي، دفتر ٤٦٤، مكاتبة رقم ٢٢، ١٦ محرم ١٢٦٥هـ/ ١٢ ديسمبر ١٨٤٨م، سجلات الحوض والمحمودية، س ١٤٢، وثيقة بدون رقم، أول يانير ١٨٨٤، ص ١-٢.

(٥) مديرية البحيرة: س ٢٣٥، صادر الفروع إلى سايرة، وثيقة ١٤٣٥، ٧ جمادى الأولى ١٢٦٢هـ/ ٣ مايو ١٨٤٦م، ص ١٢٥.

كما أقيمت المؤسسات الحكومية مثل البوستة والتلغراف بكل من كفر داود والطرانة والبريجات، وكذلك أنشت الشركات والمصانع – على نحو ما رأينا- بالهوكرية والبريجات وزقيق[1].

النمط الاجتماعي للسكان:

احتوت أوصاف الرحالة للحالة الاجتماعية لسكان الوادي- كغيرهم من المصريين- على سمات غير مرضية كما عبر جون أنتيس الرحالة الإنجليزي الذي زار مصر في الفترة من(١٧٧٠-١٧٨٢م) ويصف السكان بأنهم يعيشون في مرحلة الانحطاط والتردي، وشتان بين حالهم وحال أجدادهم .حيث يجرى هذه المقارنة قائلا: « إن المصريين القدماء كانوا علماء حقيقيين في الفلك. أما معاصروهم فهم علماء في التنجيم والدجل». وقد فسر أسباب «انحطاطهم الحضاري» وإلى هذه الدرجة التي تدعو للرثاء بأن نظام الحكم القائم على الطغيان الشرقي حرم الناس من حقوقهم المشروعة في التعبير عن أنفسهم وتذوق الفنون الجميلة وحرمانهم من إشباع غريزة المعرفة وإعاقتهم عن تحسسين أحوالهم الاقتصادية [2].

ومن الشرائح الاجتماعية التي وصفها بعض الرحالة: الأتراك والمماليك وهؤلاء لعبوا دورا في تراجع مستوى الحياة الاجتماعية للسكان الأصليين[3]. وأكد الرحالة أن الأتراك يمثلون الطبقة الحاكمة في مصر، وعقدوا مقارنة بينهم وبين المصريين سكان البلاد الأصليين فوصفوا الأتراك بأن»لغتهم مختلفة عن لغة المصريين.. وهم معزولون عن باقي الطبقات»، بينما الرحالة تيفيه وصف المصريين بأنهم»أفضل من الأتراك حيث تسهل معاشرتهم»، وجاء ما وصفه

---

(١) محافظ مجلس الوزراء: المالية، محفظة ١٣ج، ٦ يونية ١٨٩١م.

(٢) جون أنتيس: مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من خلال وصف الرحالة جون انتيس(١٧٧٠-١٧٨٢م)، ترجمة سيد أحمد على الناصرى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٢٣.

(٣) ثيودور هوك باتريك: تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكيسية، مكتبة المحبة، القاهرة ٢٠٠٥م، ص ١١٢-١٢٣.

مطابقا لما ذكره ليو الأفريقى الذي وصف المصريين قائلًا: «أنهم الطف من الأتراك الكسالى، وهم مرحون لا يبخلون بالكلمة الطيبة،لا يصنعون الكثير من الإساءات كما هو مألوف في المدن الكبرى»،بينما أكد مونكونى الذي زار مصر في القرن السابع عشر بأن المصريين لهم عادات جميلة ومتسامحون[١].

ولقد رصد الرحالة انتيس أهم أمراض المجتمع الاجتماعية وهي الرشوة والفساد والمحاباة التي هي كانت صفة البكوات المماليك. ولقد كتب الرحالة كليجهورن بعد أيام قليلة من إقامته في القاهرة يقول إنه لا يمكن عمل أي شيء في هذا البلد بدون تقديم هدايا[٢] ومما لاحظه الرحالة الفرنسيون في مصر عامة التفاوت الطبقي الشديد ما بين بالغي الثراء والمعدمين من الفلاحين الذين يعيشون في بؤس وشقاء رغم كونهم أداة تحصيل خيرات الوادي فضلًا عن إلزامهم بدفع الضرائب أو إسقاطها بتسخيرهم في نقل النطرون. وتعرض سونيني لوصف تأثير الظروف الاقتصادية على طبيعة الحياة الاجتماعية[٣]. والآن يجب علينا متابعة النمط الاجتماعي للسكان:

- أعيان الريف

في عام ١٥٠م استقر أحد أغنياء مدينة الإسكندرية وهو «فرونتنيوس» بوادي النطرون، والذي يرجع إليه الفضل في ادخال حرفة الزراعة في منطقة الوادي، بعيدًا عن ضجيج المدن وعسف الولاة الرومان واضطهادهم، ولكنه سرعان ما تركها وتفرغ للرهبنة واستطاع تكوين جماعة رهبانية في برية شيهيت، ولذلك نعد فرونتنيوس أول الأعيان،بل كان لنشاطه في هذا المجال أثره على تشجيع العديد من المواطنين على استصلاح الأراضي، وممارسة حرفة الزراعة ومن هنا بدأت فكرة تكوين الملكيات الزراعية بهذه البقعة[٤].

---

(١) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١م، ص ٧٢.

(٢) جون أنتيس: المرجع السابق، ص ٩.

(٣) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٤)حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٣-١٤.

وقد أشار الرحالة الجنرال أندريوسى إلى أن هناك العديد من الأعيان يمتلكون الأراضي ويتحكمون في حركة النشاط الاقتصادي، وهؤلاء من الذين نجحوا في تشييد منازل لأنفسهم بالوادي [١]. وربما هذا ما دفع أوليفيه أن يقول: «رغم ما تعانية مصر من طغيان المماليك وانتشار المجاعات والطاعون وهجمات البدو وفرض الغرامات على الفلاحين إلا أن مصر رغم كل هذه المشكلات تتمتع بثروة ورخاء زراعي كبير»[٢].

على أية حال، احتلت طبقة أعيان الريف قمة الهرم الاجتماعي في وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر، وتتكون هذه الطبقة من بضع عائلات كبيرة من العمد والمشايخ، الذين استطاعوا أن يحرزوا مكانة اجتماعية مرموقة ونفوذًا اجتماعيًّا متزايدًا على الفلاحين، وارتكز هذا النفوذ على الدور الذي يلعبونه في خدمة السلطة – على نحو ما رأينا- وعلى مساحة الأراضي الزراعية التي تضع عائلاتهم أيديها عليها[٣].

واختلف نمط الحياة التي كان يعيشها أعيان الريف من عمد ومشايخ القرى عن نمط حياة الفلاحين، فقد كانوا يسكنون في منازل كبيرة ومشيدة من الأحجار والطوب الأحمر، وكانت أرقى من منازل الفلاحين واشتهر منها في الوادي منزل الشيخ حمد زهران بكفر داود[٤] ومنزل العمدة هنداوي عيسى[٥] ومنزل سيد عبد الله عمدة الخطاطبة[٦].

وكانت بعض منازل أعيان الريف تشبه – إلى حد ما- منازل القاهرة من حيث البناء والشكل والأثاث والزينة، فعلى سبيل المثال اشتمل منزل حسنين حمزة عمدة البريجات على دورين، الدور الأول وبه مضيفة للزوار والغرباء وحجرات الخدم وطهي الطعام وأسطبل للخيول وأما الدور الثاني فذو حجرات متعددة لمعيشة العائلة، وبها أبهى أنواع الأثاث على النمط الأوروبي،

---

(١) تأليف علماء الحملة الفرنسية:ج٢، المرجع السابق، ص ٧٠.

(٢) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٣) محكمة البحيرة: س ٩٨، م ١٨٩، ٣ ذي القعدة ١٢٧٦هـ/ ٢٣ مايو ١٨٦٠م، ص١٣٨.

(٤) محكمة النجيلة: س ٧٢٥، م ٤، ١٩ ذي القعدة ١٢٨٤هـ/ ٢٥ مارس ١٨٦٧م، ص١.

(٥) نفسه: س ٧٢٧، م ٢٠٢، ٦ ذي القعدة ١٢٨٧هـ/ ٢٨ يناير ١٨٧١م، ص٥٣.

(٦) مديرية البحيرة: س ٧٢٧، وثيقة ٢٠٥، ١٠ ذي القعدة ١٢٨٧هـ/ ٦ فبراير ١٨٧٣م، ص٥٤.

أما الشكل الخارجي للمنزل فمزين بالزخارف والألوان ذات الأشكال المتداخلة وفي وسطها الشبابيك بالزجاج والحديد المخروط، والحديقة ذات بهجة متسعة ومزودة بأشجار الفاكهة والورد[١]. كما ذكر الرحالة جون جاردنر ويلكنسون بيت زجاج الكولونيل ليك الذي يرجع تاريخ إنشائه إلى العصر الروماني،مما يدل على قيمته المعمارية والأثرية في برية شيهيت[٢].

كما نعم أعيان الريف في وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر بدرجة من الثراء، لقيامهم باختصاصات واسعة لخدمة الدولة، فحصلوا على نصيب من الثراء لأبناء طبقتهم؛ ولذا فإنهم أصبحوا يكونون فئة متميزة، مستغلين نفوذهم أسوأ استغلال في معاملة الفلاحين[٣].

واحتل التجار مكانة بارزة في قمة الهرم الاجتماعي في وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر، وتكونوا من أرباب التجار والمتسببين[٤] الذين سيطروا على تجارة الوادي- على نحو ما رأينا- واستطاعوا تكوين أنفسهم من الصفقات التجارية، كما كونوا لأنفسهم علاقات اجتماعية واسعة[٥].

وتتضح مكانة التجار من خلال الإشارات العديدة بالوثائق التي ميزتهم على غيرهم بإضافة ألقاب التفخيم إلى أسمائهم كدليل على دورهم في تنشيط الحركة التجارية، إذ كان التاجر يلقب بـ(الخواجا) أو (عين أعيان التجار)، وربما تدل هذه الألقاب على مكانتهم الاجتماعية في مجتمع وادي النطرون[٦].

---

(١) محكمة البحيرة: س ١٠١، م ٤٧٨، ٢ جمادى الأولى ١٢٨١هـ/ ١٣ أكتوبر ١٨٦٤م، ص١٠٩-١١٥.

(2) https://de.wikipedia.org/wiki/John_Gardner_Wilkinson.

(٣) مديرية البحيرة: س ٤٦١، صادر الفروع لقسم النجيلة، وثيقة ١١٢، ٢٣ رجب١٢٨٧هـ/ ١٩ أكتوبر ١٨٧٠م، ص ١٢٤.

(٤) المتسببون: فئة من صغار التجار، كانوا تجار تجزئة يبيعون السلع الاستهلاكية البسيطة والضرورية التي لا تستغني عنها أي أسرة، لمزيد من التفصيل انظر: ماجد إسرائيل،،طوائف المهن التجارية، المرجع السابق، ص١٤.

(٥) ديوان التجارة والمبيعات: س٥٢٩٥، ج١، وارد قيد التحريرات الواردة وثيقة ٢٠، ٢٧ ذي القعدة ١٢٦٧هـ/ ٣ سبتمبر ١٨٥١م، ص ٢٣.

(٦) محكمة الإسكندرية: س ٤، إشهادات، م ١٧٤، ١٠ شوال ١٢٨٢هـ/ ٢٦ فبراير ١٨٦٦م، ص ٦٩.

ولمتابعة النشاط التجاري جمع بعض كبار التجار ما بين السكن في المدينة وقرى الوادي، وكان منهم على سبيل المثال التاجر منقريوس الذي سكن مدينة دمنهور، وعزبة الطرانة[١] والتاجر شعبان حمودة الذي سكن مركز النجيلة وقرية البريجات، وكانت منازلهم مميزة مما يدل على ثرائهم المادي[٢].

وكانت منازل بعض صغار التجار والمتسببين في وادي النطرون تشبه منازل الفلاحين، وربما يدل ذلك على المكانة المتواضعة التي كانت تحتلها هذه الفئة من التجار بقرى وادي النطرون، ومن أشهرهم التاجران علي عبد الله[٣] وأحمد موسى[٤].

وكانت فئة التجار تكون وحدة متماسكة فيما بينها، وكانت جميع منازعاتها تحل في إطارها عن طريق كبير التجار الذي كانوا يختارونه ليقلد هذا المنصب الفخري وكان من شروط اختياره حسن السير والسلوك، وطيب السمعة، وأن يكون مشهودًا له بالعفة والنزاهة وتمثلت مهنته في فض ما ينشب بين التجار من منازعات[٥].

- الفلاحون:

لقد أفاض الرحالة الفرنسيون في وصف أحوال طبقة الفلاحين فقد استرعت انتباهم بفقرهم وبؤس معيشتهم وقد وصفوا الفلاحين»بأنهم سود البشرة من جراء تعرضهم للشمس»، وتعجب بيلون من أن هذه الطبقة رغم أنها من «أكبر طبقات المجتمع حجما إلا أنها أقلها امتيازًا» فملابسهم رثة يعيشون في منازل من الطوب النيء، غذاؤهم بسيط من الحبوب تزداد مصائبهم في حالات الفيضان أو تشريق الأراضي فيضطرون إلى الهجرة من أراضيهم والإقامة في المناطق والتلال المرتفعة. وأكد بيلون أنه »لا يمكن مقارنة الفلاحين بأوضاعهم

---

(١) محكمة البحيرة: س ١٨٥، م ٥، ٤ ربيع الثاني ١٣٠٥هـ/ ١٣ ديسمبر ١٨٨٧م، ص ٦.

(٢) نفسه: س ٧٢، م ١٧٦، ٢٦ ذي الحجة ١٣٠٧هـ/ ١٣ أغسطس ١٨٩٠م، ص ٧٣

(٣) نفسه: م ١٧٣، ٢٥ ذي الحجة ١٣٠٧هـ/ ١٢ أغسطس ١٨٩٠م، ص ٧١.

(٤) مضبطة البحيرة: س ١٨، م ٢٩٩، ١٥ ذي الحجة ١٢٨٤هـ/ ٨ إبريل ١٨٦٨م، ص ١٢٨.

(٥) ديوان المجلس الخصوصي: محفظة ١، ملف ١٤، وثيقة ١٤٥، ٤ محرم ١٢٨٢هـ/ ٣٠ مايو ١٨٦٥م.

المتردية بطبقة الأتراك أو المماليك»، فهم يتعرضون للعديد من المجاعات وذكر فيلامون أنهم اضطروا لأكل سيد قشطة في دمياط بسبب انتشار المجاعة. ومن الطرائف التي ذكرها شسنو وانفرد بذكرها »أن أطفال الفلاحين يظلوا عرايا لا يرتدون ملابس حتى يبلغوا سن العاشرة»[١].

على أية حال، كان الفلاحون يشكلون غالبية سكان وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر، واقترنت الأرض بهم، فأحبوها وربطوا مصيرهم بها وتحملوا من أجلها الكثير؛ حيث امتلكوا صفات الصبر والمثابرة والهدوء والطاعة والإيمان العميق بقضاء الله وقدره[٢]. والحياة الزراعية في وادي النطرون تعتمد أساسًا على الأرض والفلاح، ذلك الفلاح، الذي غرس نفسه في تربة وطنه فزاد من خصوبتها، وهو رجل قوي البناء شديد الإصرار صلب العود، متناسب الجسم، منتظم التقاطيع، يحتمل الصبر ويعمل ليلًا نهارًا، يقاسي لهيب حر الصيف وبرد الشتاء[٣].

وعاش الفلاحون في قراهم حياة بسيطة، واتخذوا منازل بسيطة مصنوعة من الطوب اللبن، مُكوَّنة في معظمها من طابق ضيق يشتد فيه الحر، وتشاركهم فيها دوابهم؛ ولذلك حاربتهم فيها الأمراض والأوبئة؛ الناشئة من كثرة القمامة والرطوبة وسوء التغذية[٤]. واعتمد طعامهم على الغذاء النباتي الذي يتألف من خبز الذرة والفول المسلوق واللفت والبصل، بالإضافة إلى الجبن

---

(١) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص ٧٦-٧٧.

(٢) لطيفة محمد سالم: لقطات من التعبير عن سخط الفلاحين قبل ثورة ١٨٨١/ ١٨٨٢م، بحث منشور ضمن الرفض والاحتجاج في المجتمع المصري في العصر العثماني،مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٢٥١.

(٣) إلهام ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص ٢٤١.

(٤) محمد عاطف غيث: التغير الاجتماعي في المجتمع القروي، الدار القومية، القاهرة ١٩٦٥، ص ١١١-١١٢.

القريش واللبن الرايب والكشك والفول المدمس، والعدس، والبيسار[١] أما اللحوم والطيور، فكاد أكلها أن يرتبط بالمواسم والأعياد[٢].

أما ملابس الفلاح فهي بسيطة، تتكون من قميص وسروال من الكتان، عليها قميص أزرق واسع وحول خصره حزام من الجلد أو القماش ويرتدي على رأسه قلنسوة من طربوش يعرف باللبدة وفي الشتاء يرتدي عباءة واسعة تسمى «الزعبوط»[٣]. وكان غالبية فلاحي وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر من المسلمين والأقباط، إلا أننا نستطيع أن نرصد أن غالبية المسلمين تركزوا في بعض القرى مثل قرية البريجات والأخماس وأبو نشابة، بينما تركز غالبية الأقباط في قرية كفر داود والطرانة وعزبة الطرانة، وهذا يعني أنه لم تكن هناك قرية تخلو من كليهما أو أنهم عاشوا غير منعزلين أو معزولين، وإنما كانوا مندمجين معًا واتسعت علاقاتهم وتعاملاتهم بالهدوء، وقد استمر هذا الوضع قائمًا في الوادي طوال القرن التاسع عشر حتى الآن[٤].

ومما يذكر أن معظم الأقباط الفلاحين كان شأنهم الاجتماعي في ذلك شأن أغلبية سكان وادي النطرون من المسلمين، ولكن بعض العائلات القبطية لقنت أبناءها أسرار مهنة المحاسبة والكتابة الديوانية حتى يتميزوا عن رفاقهم المسلمين الذين يتعلمون في كتاب القرية[٥]، فبرعوا

---

(١) البيسار: كلمة تحرفت إلى (البصارة)، وتتركب من الملوخية الناشفة وشيء من الفول المدشوش لمزيد من التفصيل انظر: طاهر أبو فاشا، هز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧، ص ٩٨.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: سعيد محمد حسن الملط: أعياد مصر بين الماضي والحاضر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢.

(٣) إلهام ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٤) تعداد نفوس: سجلات رقم ١٧٩، ل/ ٩/ ٧٩/ ١٥٤، تعداد كفر داود قسم النجيلة، سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م.

(٥) ألكسندر شولش: مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية (١٨٧٨ - ١٨٨٢م) تعريف رؤوف عباس، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٣م، ص ٥٣.

في وظائف المحاسبين والكتبة ومن أمثلة ذلك المعلم ندا يوسف من أهالي قرية كفر داود الذي كان صرافًا في نواحي الطرانة وعزبتها في سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م[١] وكذلك حنا حنا الذي كان كاتبًا بقسم النجيلة في سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م[٢].

ومنذ بداية القرن التاسع عشر عانى الفلاحون في مصر، كما عانوا في وادي النطرون –وفي كل العصور– من الأنظمة الاقتصادية، التي كان من الباعث على تغييرها ما اتصف به محمد علي من قوة التأثير في مجال الحياة الاقتصادية والاجتماعية وقد انعكس ذلك على الفلاحين الذين كانوا أدوات مربحة[٣] فخضعوا لنظام الاحتكار، وكانت له المساوئ التي كبلتهم وفرضت عليهم الضرائب دون رحمة، وخاصة عندما ظلت القرية المصرية مسئولة عن أداء الضرائب المقررة عليها مسئولية جماعية[٤] فتراكمت الأموال عليهم وأصبحوا مكتوفي الأيدي أمام جباة الضرائب، ومن ثم حق عليهم العقاب، كذلك فقد سيقوا إلى أعمال السخرة وأجبروا على التجنيد الإجباري بعد أن ألفوا الاستقرار على أرضهم، وهي التي احتوتهم أحياء وأمواتًا[٥].

وقد تأثر فلاحو وادي النطرون بالأزمة المالية التي تعرضت لها البلاد في عهد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣–١٨٧٩م) فزاد ثقل عبء الضرائب عليهم، فكانت ضريبة الأراضي ركنًا أساسيًّا، فاستخدمت الضغوط كافة لتحصيلها قبل ميعاد استحقاقها، كما فرضت ضرائب على الري، والدفاع، والملح، والرأس[٦] أيضا الدخولية التي فرضت حتى على باعة اللبن والجبن والفجل، بالإضافة إلى العوائد التي فرضت على الجاموسة والحمار وصاحبهما[٧].

---

(١) محكمة النجيلة: س ٧٢٦،م ١٨٦، ٢٢ جمادى الأولى ١٢٨٦هـ/ ٣٠ أغسطس١٨٦٩م، ص ٧٥.

(٢) مديرية البحيرة: س ١٢٩٢، كشف استحقاقات، وثيقة بدون رقم، ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م، ص ١٩.

(٣) لطيفة محمد سالم: لقطات من التعبير عن سخط الفلاحين، المرجع السابق، ص ٢٥١.

(٤) كينث كونو: فلاحو الباشا، الأرض والمجتمع والاقتصاد في الوجه البحري (١٧٤٠– ١٨٥٨م)، ترجمة سحر توفيق، مراجعة عاصم الدسوقي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠م. ص١٨٢.

(٥) لطيفة محمد سالم: لقطات من التعبير عن سخط الفلاحين، المرجع السابق، ص ٢٥١.

(٦) إلياس الأيوبي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٢٥٤، ٢٦٧.

(٧) معية سنية تركي: محفظة ٥٣، ملخصات دفاتر، دفتر ٥٠، وثيقة ٦٦٣، ٢٥ ذي الحجة ١٢٤٩هـ/ ١٥ مايو ١٨٣٤م.

ومارس موظفو الحكومة أبشع أنواع الطرق في تحصيل الضرائب من فلاحي وادي النطرون، فكان الجلد من الأمور المألوفة لمن يتأخرعن دفع ما يطلب منه، كذلك كان هناك الصلب على جذوع النخيل، وطريقة أخرى تمثلت في أن تغمس قطعة من القماش في الكحول وتشعل وتقرب من فم الفلاح وعندئذ يلكم صدره، فيستنشق اللهب المشتعل، وكان يوخز في جسمه بجزء من ناب فرس النهر، وحتى الميت لم يمكن يفلت من أيدي الجباة، فهو لا يدفن إلا بعد أن يسدد أهله ما عليه من ضرائب[١]. بالإضافة إلى أنهم كانوا يُداهمون بيوتهم وينهبون ما فيها، ويزجون بأصحابها في السجون، لذلك اضطر الفلاحون إلى الرهن أو الاستدانة من المرابين (المصريون والأجانب) ليسددوا ما يطلب منهم، كما كانوا يبيعون زراعاتهم قبل نموها أو يبيعون محصولاتهم مقدمًا قبل أوانها بأبخس الأثمان أو يبيعون ماشيتهم لهذا الغرض[٢] واغتصب موظفو الحكومة أراضيهم لتوسيع أطيان كبار الملاك، كذلك تم الاستيلاء على أراضي الفلاحين للمنافع العامة دون أن يعوضوا عنها[٣].

هذا بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية، خاصة عندما ينقص فيضان النيل أو يزداد؛ فكان يصاحبه انتشار الكثير من الأمراض والأوبئة والمجاعات، بالإضافة إلى سوء توزيع المياه التي تروي أراضي الفلاحين، فكثيرًا ما كانت تقطع عنها المياه لصالح كبار الملاك، فكانت أراضي الأغنياء تفيض بالماء، بينما تبقى أراضي الفقراء شراقي لا تصلها المياه، مما يترتب عليه هلاك الزرع، وخراب بعض القرى ووقوع الاضطربات الجسيمة بين الفلاحين لصراعهم على القليل

---

(١) لطيفة سالم: لقطات من التعبير عن سخط الفلاحين، المرجع السابق، ص٢٥٢؛جوان كول: الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر،ترجمة عنان علي الشهاوي، مراجعة عاصم الدسوقي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠١م، ص ١٢٥.

(٢) رءوف عباس: الملكيات الزراعية، المرجع السابق، ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) عبد الله محمد عزباوي:عمد ومشايخ القرى ودورهم في المجتمع المصري في القرن التاسع عشر، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٨٤م، ص ٧١.

المسموح بها من المياه، وزاد الطين بلة أن خضع الري منذ سنة ١٨٨٢م لسيطرة الأجانب، إذ امتلكوا الوابورات وتحكموا في ري أراضي الفلاحين[١].

على أية حال، أمام هذه الأوضاع المنهارة لم يقف فلاحو وادي النطرون مكتوفي الأيدي، ولكنهم عبروا عن رفضهم في صور عديدة، تمثلت في أولى الخطوات في التعبير السلبي وهو هروبهم وتسحبهم، وهو خير وسيلة للنجاة بأنفسهم وأكبر البراهين على أن لطاقتهم حدودًا[٢]، فعلى سبيل المثال كثر التسحب في قريتي أبو نشابة والبريجات؛ نظرًا لقسوة الظروف ومراراتها، ولقد رفضوا الأمر الواقع وهجروا أراضيهم أملًا في أن يجدوا فرصة عمل وحياة أخرى كريمة[٣] ويصف الشيخ يوسف الشربيني ازدياد هجرة آلاف صغار الفلاحين المنتجين من الريف إلى أماكن أخرى، في الأبيات التالية:

قالت تسافر يا فتى ... وتفارق الوجه الحَسنْ
فـأجبتُـها بتـذللٍ ... والقلبُ يعلوه الشجنْ
هي المعيشة فرَّقتْ ... بينَ الأحبةِ والوطَنْ[٤].

أما ثاني هذه الخطوات فهو رفض دفع الضريبة بادعاء الفقر، وتفضيل الجلد على الدفع، وعندما يجلد الفلاح يرفض أن يصرخ أو يتأوه، وهو يؤلم جلاديه ويغضبهم لدرجة تجعلهم يبالغون في الضرب والجلد إلى أن يفقد حياته[٥].

---

(١) مجلس الأحكام: س٧/ ٩/ ٨، مكاتبة رقم ٦ إلى المالية، ٢١ جمادى الأولى ١٢٧٩هـ/ ١٤ نوفمبر ١٨٦٢م، ٤٨؛ لطيفة محمد سالم: دور القوى الاجتماعية في الثورة العرابية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١م، ص ٢٨.

(٢) إدارة المحليات: محفظة ٥، إدارة تفتيش بحري، وثيقة ٥، ٥ شعبان ١٢٧٩هـ/ ٢٦ يناير ١٨٦٣م.

(٣) معية سنية عربي: س ٢٥، قيد الأوامر الصادرة إلى الأقاليم، وثيقة رقم ٥، ٢ محرم ١٢٥٢هـ/ ١٩ إبريل ١٨٣٦م، ص٢.

(٤) يوسف الشربيني: المرجع السابق، ج١، ص ٤٧.

(٥) مجلس الأحكام: س ٧/ ١٠/ ١، مضبطة ١٢٢، ٢٢ محرم ١٢٧٤هـ/ ١٢ سبتمبر ١٨٥٧م، ص٦٤.

كما عبر فلاحو وادي النطرون بثقافتهم وبصور عديدة من الرفض الإيجابي بكثرة التحدث بالأمثال الشعبية التي تدعو إلى التمرد، فنراهم يقولون: «ياروح ما بعدك روح» و «دا بعدك» ومثل آخر «العمر واحد والرب واحد» و «مطرح ما تحط رأسك حط رجليك» كما يقولون أيضًا: «قضينا العمر في قهر، هو العمر فيه كام شهر» وكلها أمثال تدعو إلى الاستنكاف والثورة والتمرد[١].

على أية حال، لم يقتصر دور فلاحي الوادي على مجرد ترديد الأمثال، بل عبروا عن تمردهم إيجابيًّا بالتعدي على المشد والخفير لرفضهم المثول أمام شيخ القرية لسداد ضريبة أو الطلب للسخرة أو التجنيد[٢] وكان تعبيرهم عن ذلك يظهر في بعض الأحاديث، ويدل على تحمل مئات من سنوات القمع والكبت والمعاناة، ففي سنة ١٨٧٥م مثلًا انفجر الكبت حين أعلن الفلاحون في البريجات رفضهم العمل لدى عمدة القرية إلا بعد سداد أجورهم، فاستجاب لطلبهم لإنهاء تمردهم[٣].

كما تعتبر الثورة العرابية ١٨٨١م، أجمل الصور الإيجابية التي عبر فيها فلاحو وادي النطرون عن رفضهم للظلم بتأييدهم لأحمد عرابي من خلال إمداده بالمؤن[٤] وعبروا عن رفضهم للاحتلال البريطاني بالاعتداء على مراكبه المارة أمام قراهم في النيل[٥] كما نددوا بمأساة دنشواي سنة ١٩٠٦م وشاركهم رهبان الوادي بإقامة الصلاة على أرواح الشهداء[٦].

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر: جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي، ط٣، ترجمة إبراهيم شعلان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠؛ محمد قنديل البقلي: وحدة العادات والتقاليد بين مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.

(٢) معية سنية: محفظة ٤، ملخصات دفاتر رقم ٢٨١، وثيقة ٢٢٩، ٧ صفر ١٢٦٤هـ/ ١٤ يناير ١٨٤٨م.

(٣) مديرية البحيرة: س ٢١٦، صادر الدواوين إلى سايرة، م ١٧٠، ٢٨ رمضان ١٢٩٣هـ/ ١٧ أكتوبر ١٨٧٦م، ص ١٢٦.

(٤) محافظ أبحاث: محفظة ١٢٥، دفتر رقم ٢٨٧ عابدين، وثيقة بدون رقم، ١٧ شوال ١٢٩٨هـ/ ١١ سبتمبر ١٨٨١م.

(٥) محافظ أبحاث: محفظة ١٢٥، أوراق ومستندات تتعلق بالثورة العرابية، دوسيه ٣، وثيقة بدون رقم، بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٨٨٢م.

(٦) ثيودور هول باتريك: المرجع السابق، ص ١٣٩-١٤٠؛ داود حناوي: المرجع السابق، ص ٦٦٧.

وكانت طبقة الفلاحين تمثل غالبية السكان والتي تعد أدوات الإنتاج لمعظم ثروات وادي النطرون، ولكنها حرمت من التمتع بثمرة إنتاجها، ووقع عليها الظلم والأعباء- على نحو ما رأينا- وبالرغم من ذلك فقد ظلت ثائرة ضد الظلم بالتعبير بالرفض والتمرد والاحتجاج والثورة طوال القرن التاسع عشر.

- العربان:

وتعرض الرحالة لوصف عربان وادي النطرون، فكتب أميديه ايمليان جوبيتر دراسة بعنوان» « حصر للقبائل العربية التي تقطن بين مصر وفلسطين»، تناول فيها القبائل التي عاشت في الوادي، نذكر منها على سبيل المثال قبائل الجوابي والهنادي والسمالو[١]، بينما تناول جرابيتان لوبير في دراسة بعنوان «جولة في أقليم المريوطة «، القبائل التي سكنت الجزء الغربي من ولاية البحيرة والذي كان يعرف قديما باسم إقليم المريوطة[٢]، أما أندريوسى فوصف الحياة الاجتماعية للعربان في الوادي والقوانين العرفية التي كانت تحكمهم وهي التي أدت إلى شيء من عدم الاستقرار عند نشوب النزاعات التي تفضي أحيانًا إلى القتل والتي اعتمدت على القصاص أو الدية دون ضابط، وذكر أندريوسي شهرة بعض القبائل والتي كانت لها نشاط في مجال التجارة بوادي النطرون [٣].

على أية حال، لعبت قبائل العربان دورًا بارزًا في وادي النطرون خلال فترة الدراسة، وكان لهذا الدور أثره على حياة السكان، فشكلت غاراتهم خطرًا داهمًا على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ولخطورتهم لجأ الحكام إلى تخليصهم من حياة البدو والترحال إلى حياة الاستقرار[٤].

ونظرا لأهمية دورهم يجدر بنا أن نشير لأشهرها وأهمها في الوادي خلال فترة الدراسة فمنها:

---

(١) تأليف علماء الحملة الفرنسية:ج٢، المرجع السابق، ص ٣٧٣-٤٠٠.

(٢) نفسه: ص ١٧-٤٠.

(٣) نفسه: ص ٦٨-٧٤.

(٤) ديوان خديوي تركي: دفتر ٧٦٤، وثيقة ١٦٦، ٨ محرم ١٢٤٦هـ/ ٢٩ يونيو ١٨٣١، ص ١١٨.

- **قبيلة الهنادي**: وهي إحدى فروع بني سليم وبني سلام، وكان مجيئها من طرابلس الغرب في القرن الثامن عشر، واستقرت في صحراء مصر الغربية بساحل مريوط، وفي وادي النطرون بلغ عددها نحو مائة وعشرين نسمة[١] واستقر جزء منها في الشرقية[٢] وهم من البدو الرحل الذين لا يعرف أبناؤهم الزراعة أو التجارة، بل يعيشون على الرعي والسلب والنهب وكانت من أقوى قبائل العربان بالوادي[٣]. وذكر شابرول دى فولفيك[٤] قائلًا: هذه القبيلة كانت تعمل بنقل النطرون والسمار والبلح، وتمثلت ثروتهم في الجمال وقطعان الأغنام والماشية»[٥].

- **قبيلة أولاد علي**: وهي من أكبر القبائل العربية الرحالة في مصر، وجاءت من طرابلس الغرب بعد بني سلام في القرن الثامن عشر[٦] وانقسمت إلى قسمين، أقام القسم الأكبر منها في البحيرة بمركز أبو المطامير، والدلنجات، وإيتاي البارود، وأبو حمص ووادي النطرون[٧]، وتقاسمت هناك

---

(١) تعداد نفوس: س ٢٦١، ل/ ٩/ ٧٩/ ٢٦١، ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م، ص١-٣.

(٢) معية سنية تركي: دفتر٢٧، من المعية إلى عمر بك منظم أمور قسم ثالث الشرقية، وثيقة ٣٧٤، ١٣ ربيع ١٢٤٢هـ/ ١٤ نوفمبر ١٨٢٦، ص ١٢٧.

(٣) محافظ عابدين: محفظة رقم ٥٥٥، مذكرة إيضاحية عن قبيلة أولاد علي في البحيرة، ١٩٠٣م؛ ليلى عبد اللطيف: سياسة محمد علي إزاء العربان في مصر، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٨٦م، ص١٣.

(٤) شابرول دى فولفيك (١٧٧٣-١٨٤٣م): اسمه جلبير جوزيف جاسبار كونت دى شابرول، وقد ولد في مدينة ريوم عام ١٧٧٣م وهذا يعنى أنه عندما قدم إلى مصر كان يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، وكان يعمل مهندسًا للطرق والكبارى، وعين عقب عودته من مصر مأمور لمدينة مونتينو عام ١٨٠٦م، وأنشأ بها طريق الكورنيش، وفي عام ١٨١٢م قابله نابليون بشكل عابر، وكان شابرول يقضى إجازته في باريس، ودار بينهما حديث فأعجب به نابليون وعينه مأمورًا للسين، فأدار باريس كما ينبغى أن تدار مدينة كبرى وعاصمة لامبراطورية كبرى، وقد نجح في ذلك نجاحا كبيرا حتى أن لويس الثامن عشر قد اضطر لاستبقائه في وظيفته الحساسة،على الرغم من أنه قد عين قبل نابليون، وتدين له باريس بكثير من الأعمال الرائعة ذات النفع العام. وبعد عطائه لوطنه توفي في عام ١٨٤٣م.

(٥) تأليف علماء الحملة الفرنسية:ج١، المرجع السابق، ص٣٨-٣٩.

(٦) سميرة فهمي على عمر: دور عربان الوجه البحري في تاريخ مصر العثمانية، (٩٢٣/ ١٣١٣هـ/ ١٥١٧-١٧٩٨م، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ٥٣

(٧) محافظ الديوان الخديوي: محفظة ١، دفتر ٥٨٦، وثيقة ٣١٧، ٢ ربيع الأول ١٢٦٣هـ/ ١٨ فبراير ١٨٤٦م.

النفوذ مع قبيلة الهنادي، وهناك قسم آخر من القبيلة سكن في الشرقية، وقد بلغ عددها ١٣٤٤ نسمة وكان منها أربعة وعشرون شيخًا[١].

- **قبيلة بني عونة**: وهي من قبائل السلالمة أو بني سلامة وقد جاءت إلى مصر من طرابلس الغرب في أواخر القرن الثامن عشر، وبلغ عددها ثلاثمائة فارس[٢] واتخذت من وادي النطرون مركزًا لها[٣].

- **قبيلة الجوابي**: كتب أميديه جوبير قائلًا: «يبدو أن عرب الجوابى من أصل أفريقى، وهم يقومون بنقل ملح النطرون من البحيرات حتى الإسكندرية والطرانة وبنقل البضائع بواحة آمون(سيوه) [٤]، وقد استقرت في البحيرة في إقليم مريوط، ووادي النطرون، وأحيانًا كان يطلق على أفرادها الجوابيص[٥] وكانت تمثل جماعة صغيرة من الرعاة تتجول بحثًا عن المراعي اللازمة لإمداد قطعانها بالغذاء، وتذهب كل عام من الوادي إلى الصعيد حاملة معها النطرون مقابل ثمن محدود، ويذهب من يتجر من أفرادها إلى الواحات لشراء البلح الطازج أو المجفف لبيعه بعد ذلك لصغار التجار في القاهرة[٦] وذكر أندريوسي شهرة قبيلة الجوابي بتربية الخيول، التي كانت تمثل للسفر والتجارة أهمية قصوى آنذاك[٧]، وهي قبيلة مسالمة لا تشهر السلاح إلا للدفاع عن النفس، وبلغ عددها نحو ألفي رجل، وتعد من أكثر القبائل حفاظًا على العادات والتقاليد القديمة[٨].

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر: إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٤٧.

(٢) أحمد لطفي السيد: قبائل العربان في مصر، القاهرة ١٩٣٥، ليلى عبد اللطيف: سياسة محمد علي إزاء العربان، المرجع السابق، ص ٥٣.

(٣) محكمة البحيرة: س ٢٤، م ٦٣٩، ١٥ جماد آخر ١٢١٠هـ/ ٢٧ ديسمبر ١٧٩٥م، ص ٣٥٨.

(٤) تأليف علماء الحملة الفرنسية:ج٢، المرجع السابق ص ٣٩٧.

(٥) تأليف علماء الحملة الفرنسية: س ٩٢، م ١٦٠، ٢٥ من ذي الحجة ١٢٧٠هـ/ ١٩ سبتمبر ١٨٥٤م، ص٥٣.

(٦) إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص٥٠.

(٧) نفسه: ص ٦٨-٧٤.

(٨) حلمي محروس إسماعيل: دراسات عن الحالة الاجتماعية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، قسم تاريخ، جامعة القاهرة ١٩٧٥م، ص ١٤١-١٤٣.

- **قبيلة الحرابي**: وهي فرع من العقاقرة من قبائل سليم التي وفدت إلى مصر من طرابلس في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي[١] وانقسمت إلى خمسة فروع هي: العبيدات، والحاسة والدرسة، والفوايد، والبراعصة، واستقرت بالبحيرة في وادي النطرون، والفيوم[٢].

- **قبيلة السمالو**: وهي بطن من بني عجلان، تنتسب إلى عرب الحجاز وأحيانًا يطلق على أفرادها السمالوس، وهي من القبائل الرحل[٣] وذكر أميديه جوبير أن أفردها يعيشون في خيام واستقروا بنواحي بحيرات وادي النطرون، وكانوا يقومون بنقل ملح النطرون مع عرب الجميعات إلى الطرانة[٤]، واستقر الجزء الأكبر منهم في إقليم الفيوم، وكانوا يعيشون في حرب مع قبائل الضعفا والفرجان[٥].

- **قبائل الجميعات**: وتتفرع عن قبائل سليم الوافدة من شمال غرب إفريقيا في القرن الثامن عشر الميلادي، واستقر بعضها في البحيرة في وادي النطرون وأقام الفرع الآخر في بني سويف[٦].

والحقيقة التاريخية التي ذكرها بعض الرحالة الزائرين لوادي النطرون هي أن العربان يسكنون الجبال والصحراء ولا توجد لديهم زراعة ولا منازل شبههم تيفيه «بالتتار» يعيشون في خيام حياتهم قاسية «لا ينتمون لبشر» و» متوحشون» وتعجب أنه «على الرغم من تبعيتهم للأتراك الا أنهم لا يخشونهم» فإذا وقع تركى في أيديهم سارعوا بذبحه، إذا ألقوا القبض على مسيحي أو أرمنى أو يوناني، فإنهم يكتفون بسلب أمواله ثم يجردونه من ملابسه، وأكد «أنهم

---

(١) سميرة عمر: المرجع السابق، ص ٥٣.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٥٣.

(٣) محكمة النجيلة: س ٧٢٤، م ٣١٤، ١٥ جماد أول ١٢٨٤هـ/ ١٤ سبتمبر ١٨٦٧م، ص٧٤.

(٤) تأليف علماء الحملة الفرنسية:ج٢، المرجع السابق ص ٣٩٦.

(٥) إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٥٨-٥٩.

(٦) محكمة البحيرة: س ٤٩، م ٧٥٢، ٦ رمضان ١٢٨٢هـ/ ٢٣ يناير ١٨٦٦م، ص ١٣٧؛ إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٦٧.

رغم كراهيتهم للأتراك الا انهم يدفعون لهم الضرائب عن كل ما يملكونه من جمال وماعز[١].
وقد أفاض ثيوفنت Thevenot في وصف اعتداءات العربان على الرهبان وأديرة الوادي، حيث ذكر قائلًا: «كان الحصن هو المكان الوحيد الذي يلجأ إليه الرهبان عندما يهاجمهم العربان، وكان يحتوي على كل كنوذهم»[٢] وذكر جوهان ميشيل فانسليب الدومنيكاني (١٦٣٥-١٦٧٩م) الذي زار وادي النطرون في سنة ١٦٧٢، أنه حدثت له حادثة مبتذلة، إذ ظن العربان أنه يحمل ثروة، فدبروا كمينًا له في الطريق ليقتلوه، فاضطر فانسليب إلى التخلي عن مشروعه وبقى في الطرانة، وخلال مكوثه جمع لنا معلومات قيمة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في وادي النطرون[٣]. وقد ذكر سونيني دي مانونكورت الذي زار وادي النطرون في عام ١٧٧٨م[٤]، أنه في أثناء سفره للوادي تعرض لحادثة سرقة عرب الصحراء، كما وصف لنا مشهد هجوم دليله حسين على أسوار دير الأنبا مقار وتخريبه ونهبه[٥].

على أية حال، ربما ترجع أعمال الإغارة التي يقوم بها العربان، حسب ما وصفهم كوبان في القرن السابع عشر الميلادي إلى أنهم يعيشون في بؤس وشقاء وهم متشرودون، وقارن بينهم وبين بدو الشام فأكد أن بدو مصر أسوأ حالًا لأن بدو سوريا يتاجرون مع التجار ويبعون الصابون والأعشاب حتى أنهم يصدرونها إلى طولون ومارسيليا بينما بدو مصر لا يتاجرون في شيء، ورغم أنهم تابعون للأترك إلا أنهم لا يخضعون لهم»[٦].

---

(١) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص ٧٧-٧٨.

(٢) هيوج.ج. إيفلين هوايت: المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٣) مرتيروس السرياني(الراهب): المرجع السابق، ص١٥٨.

(٤) سمعان السرياني، الراهب: المرجع السابق، ص ٩٢-٩٣.

(٥) هيوج.ج. إيفلين هوايت: المرجع السابق، ص١٥٧-١٥٨.

(٦) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص ٧٨.

وذكر الجنرال أنطوان فرانسوا أندريوسي(١٧٩٩-١٨٠١م) الذي زار وادي النطرون أسلحة العربان في الوادي حيث ذكر قائلًا: «إن العربان مسلحون بحراب يستخدمونها بمهارة، ويقذفونها وهم ممتطون خيولهم لكنهم يجحفون بخيولهم الطيبة، وذلك بإيقافها فجأة على قدميها الخلفيتين، وهي تجرى بأقصى سرعتها وإن كانوا في نفس الوقت يبذلون قصارى جهدهم للعناية بها إلى حد لم نسمع به من قبل. ولا بغير العربان مطلقا وهم على هيئة صفوف لكنهم يغيرون متفرقين، وهم يطلقون صيحات عالية تختلط بسباب بذىء، وطريقهم في الحرب هي الطريقة التي تتبعها الفرق الخفيفة»[١]. ووصف دى بوا إيميه مكان حفظ العربان المؤن حيث وصف قائلًا: «كان لهؤلاء البدو حفر سرية يخفون فيها البلح وعلف قطعانهم، وأسحلتهم» [٢].

وكانت الاغتيالات تغذي نوازع الحرب بين القبائل وبعضها البعض أو مع بعض القرى المجاورة لهم، ويقال عندئذ أن بين هؤلاء دماء. وفي بعض الأحيان يضطر الناس أن يدفعوا ثمنًا لإعادة شراء الدم واحلال السلام (الدية)، وإن كان ينظر إلى ذلك باعتبارها عارًا، وعندئذ يصبح على الضعيف المتخاذل أن يدفع جزية مضاعفة للأقوى.. أما القرى التي ترفض أن تدفع فتتعرض للسلب والنهب ثلاث مرات، ويصيب مثل هذا السلب بالفزع، وينظر الفلاحون إلى العربان كما ينظرون إلى وباء مخيف. سألت مرة أحد مشايخ قرية ما: هل حل الطاعون بقريتكم هذا العام؟ فأجاب: نعم. مرتين، فلقد حل الطاعون والعربان[٣].

على أية حال، نظرًا لتفشي أعمال الإغارة والنهب والسلب من غالب هذه القبائل - وهو ما كان يمثل عبئًا على الحكام، حيث إن من مسوغات كونهم حكامًا أن ينشروا الأمن بين رعاياهم، ومتى بدا منهم قصور في التصدي لتلك القلاقل الاجتماعية استجلب ذلك سخط الرعية- كان من دأبهم أن يحدوا من بطش تلك القبائل ويضربوا على أيدي المتطاولين منها بالسلب وإشاعة الذعر والشعور بعدم الأمان[٤].

---

(١) تأليف علماء الحملة الفرنسية:ج٢، المرجع السابق ص ٧٤.

(٢) نفسه: ص ٢٦٥.

(٣) نفسه: ص ٧١.

(٤) ديوان خديوي تركي: دفتر ٧٦٤، وثيقة ١٦٦، ٨ محرم ١٢٤٦هـ/ ٢٩ يونية ١٨٣١م، ص١١٨.

فمع أوائل القرن التاسع عشر، وصل العربان إلى أقصى درجة من القوة وشدة البأس وساعدهم على ذلك حالة الفوضى التي سادت في الفترة ما بين جلاء الحملة الفرنسية وتولي محمد علي باشا الحكم عام ١٨٠٥م. فكانوا يخربون القرى ويفرضون الإتاوات على سكان الوادي، فضلًا عن اضطراب الأمن نتيجة لقيامهم بأعمال السلب والنهب[١].

وقد عاني وادي النطرون كثيرًا غارات العربان خلال حكم محمد علي، فعلى سبيل المثال عانى أهالي كفر داود والطرانة استيلاءهم على أراضيهم وإتلاف مواشيهم لمزروعاتهم[٢] كما دأب هؤلاء على سرقة مواشي ومحاصيل قريتي أبو نشابة والأخماس[٣] كذلك اشتكى التجار الأوربيون للديوان الخديوي من اعتدائهم على مراكبهم ما بين الطرانة ورشيد[٤] كما عانى ملتزمو النطرون من سرقتهم مادة النطرون من بحيراته خامًا، والاعتداء على قوافله والعاملين بها[٥] كذلك تعرضت على أيديهم أديرة الوادي للسلب والنهب- على نحو ما رأينا-[٦].

وحتى يتخلص محمد علي من متاعب العربان، انتهج سياسة توطينهم لحماية قرى الوادي من اعتداءاتهم وتحقيق الاستقرار عن طريق منح شيوخ قبائلهم مساحات واسعة من أطيان الأبعادية وإعفائها من الضرائب، ولم يعطهم تقاسيط تثبت حيازتهم لها، وإنما وعدهم بألا

---

(١) محكمة البحيرة الشرعية: س ٢٩، م ٢١٨، ٨ جمادى الثاني ١٢١٨هـ/ ٢٥ سبتمبر ١٨٠٣م، ص ١٣٠.

(٢) معية سنية تركي: دفتر ٧٧، وثيقة ٥٦٥، ١٠ جمادى الأولى ١٢٤٠هـ/ ٣١ ديسمبر ١٨٢٤، ص٢٣٥.

(٣) مديرية البحيرة: س١، صادر البحيرة إلى سايرة، وثيقة ٣٧٢، ٢١ جماد الثاني ١٢٦١هـ/ ٢٧ يونيو ١٨٤٥م، ص ٦١٠.

(٤) ديوان خديوي: محفظة ١، دفتر ٥٨٦، من الديوان إلى يعقوب أغا سر سواري في البحيرة، ٢ ربيع الأول ١٢٦٣هـ/ ٢٨ فبراير ١٨٤٧م.

(٥) مديرية البحيرة: س ١، ج٢، صادر إلى سايرة، وثيقة ١٠١، غرة جمادى الأولى ١٢٦١هـ/ ٧ يونيو ١٨٤٥م، ص٦٣٨.

(٦) ديوان شورى المعاونة: محفظة ٢٠، ملخصات دفاتر، دفتر ٢٨٤، وثيقة ١٩٠، ١٧ صفر ١٢٥٧هـ/ ١١ إبريل ١٨٤١م.

يكلفوا بأعمال السخرة أو الخدمة العسكرية[١] وعمل على إمدادهم بالبذور الجيدة، بالإضافة إلى أدوات الفلاحة[٢] كما وعدهم بشراء حاصلاتهم نقدًا لتسويقها بمعرفة الحكومة[٣].

وبالرغم من ذلك لم يألفوا حياة الاستقرار بسهولة، فلم يغيروا من أنماط حياتهم، وظل الكثيرون منهم يسكنون الخيام، وتركوا الفلاحين يزرعون الأرض لحسابهم مقابل نصف المحصول، فصدر أمر عام ١٨٣٧م بمنع شيوخ العربان من تأجير أطيانهم أو مزارعتها (المشاركة على محصولها) ولجأ الباشا إلى إغرائهم عن طريق منحهم الكساوى وتولي الوظائف الحكومية لتشجيعهم على الاستقرار[٤].

كما استخدم الباشا أسلوب الشدة بجانب التوطين لردع العربان عن أعمالهم، بإصدار قرار في غاية ذي الحجة ١٢٥٣هـ/ ٢٧ مارس ١٨٣٨م إلى ناظر العربان يأمره بمنع عربان الجميعات من إقامة خيامهم في مزارع الأهالي، لما في ذلك من إيذاء لهم[٥] كما أمره بإحضار مشايخ عربان الوادي الذين قاموا بنهب الأسواق والقرى إليه لتوبيخهم وعقابهم[٦] وعندما دأب عربان أولاد علي بالوادي على التوجه إلى رشيد لسرقة البلح والاعتداء على الأهالي صدر أمر إلى محافظ رشيد في أكتوبر ١٨٣٤م بضبط اثنين منهم، ليصلب أحدهما ويرسل الآخر إلى

---

(١) رءوف عباس: الملكيات الزراعية، المرجع السابق، ص ٩٣.

(٢) معية سنية تركي: دفتر ٤٤، من الجانب العالي إلى أحمد باشا، وثيقة ١٨٣، ٢٧ صفر ١٢٤٨هـ/ ٢٥ يوليو ١٨٣٢م، ص١١٨.

(٣) أحمد الدماصي: المرجع السابق، ص ١٩١.

(٤) ديوان خديوي: دفتر ٣، من الباشا إلى مأمور الديوان الخديوي، وثيقة ٧٨٩، ١٩ شوال ١٢٤٧هـ/ ٢٢ مارس ١٨٣٢، ص١٦٨؛ الوقائع المصرية: عدد ٣٨٤، ٢١ ذي الحجة ١٢٤٧هـ/ ٢٢ مايو ١٨٣٢م، رءوف عباس: الملكيات الزراعية، المرجع السابق، ص٩٣.

(٥) ديوان شورى المعاونة: محفظة ١٥، ملخصات دفاتر، دفتر ٢٨٤، وثيقة ١٠٨١، غاية ذي الحجة ١٢٥٣هـ/ ٢٧ مارس ١٨٣٨م.

(٦) معية سنية تركي: دفتر ٤٤، من الجانب العالي إلى أحمد باشا، وثيقة ١٨٣، ٢٧ صفر ١٢٤٨هـ/ ٢٥ يوليو ١٨٣٢م.

السجن ليكونا عبرة لغيرهما، مع التنبيه على مشايخ أولاد علي بعدم السماح لرجالهم بالذهاب إلى رشيد إلا للضرورة القصوى[١].

ومع بداية حكم عباس الأول (١٨٤٨- ١٨٥٤م) سرعان ما عاد العربان لسيرتهم الأولى من الارتكان إلى السلب والنهب بالوادي، ومثال ذلك عندما دأبت مجموعة من عربان الفوايد بالتعدي على الأخماس، فعانت السلب والنهب لمواشيها وحاصلاتها[٢] كما قام عربان الجميعات والهنادي بقطع الطرق الفرعية بين قرى الوادي وفرض إتاوات على سكانها[٣] فأصدر عباس الأول أمرًا (١٨٥٠م) هددهم فيه بنزع أطيانهم منهم إذا لم يكفوا عن أعمالهم وأن يتولوا فلاحتها بأنفسهم[٤].

وعندما تولى محمد سعيد باشا الحكم (١٨٥٤-١٨٦٣م) قرب الفلاحين إليه وكره العربان، بل قام بتأديبهم بحرمانهم من كل ما منحه لغيرهم، وأراد إدخالهم في الخدمة العسكرية[٥] فكان نتيجة لذلك أن قام عربان وادي النطرون بمشاركة أقرانهم في الفيوم بثورة، أعلنوا فيها عن سخطهم بأسلوبهم البدائي باعتدائهم على الفلاحين بالسلب والنهب، كما تعرضت قريتا البريجات والأخماس منهم[٦] لذلك، فما كان من سعيد إلا أن أصدر أوامره بإبادتهم في تلك المنطقة، وقضى على ثورتهم، بعد أن حاصرهم وقتل الكثير منهم، وسجن رؤساؤهم في ليمان القلعة السعدية[٧].

---

(١) إيمان محمد عامر: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٢) محافظ مديرية البحيرة: محفظة ١، وثيقة ٩، بتارخي غرة جمادى الأولى ١٢٦٨هـ/ ٢٢ فبراير ١٨٥٢م.

(٣)معية سنية عربي: س ٤٤، من المعية إلى مديرية الضبطية، مضبطة رقم ٦٧٤، ٢٥ رجب ١٢٦٦هـ/ ٦ يونيو ١٨٥٠م، ص ٦٧٤.

(٤) رءوف عباس: الملكيات الزراعية، المرجع السابق، ص ٩٤.

(٥) ديوان الجهادية: س ٤٥١، وثيقة رقم ٢٣، ٢٥ شوال ١٢٧٦هـ/ ١٦ مايو ١٨٦٠م، ص ٣٧.

(٦) محافظ الأبحاث: محفظة ١١٨، معية سنية تركي: دفتر ١٦٤٣، ج١، صادر المعية إلى مديرية البحيرة ٢ صفر ١٢٧٥هـ/ ١١ سبتمبر ١٨٥٨م؛ مديرية البحيرة، س ١١٣، صادر دواوين للروضة، وثيقة ٢٤٤، ١٦ شوال ١٢٧٤هـ/ ٣١ مايو ١٨٥٨م، ص ١٤٢.

(٧) لطيفة سالم: القوى الاجتماعية في الثورة العرابية، المرجع السابق، ص ١٤٧

وكثيرا ما كان البدو يثيرون الاضطرابات، وقد شهد عصر إسماعيل بعضها في وادي النطرون، فعلى سبيل المثال قامت قبيلتا السمالو والحرابي، بالسلب والنهب والاعتداء على فلاحي قريتي الخطاطبة والطرانة[1]، فما كان من الحكومة إلا أن قامت بإرسال أشقيائهم إلى ليمان القلعة السعدية، ورؤسائهم إلى نواحٍ متفرقة بصعيد مصر[2].

ولجأت الحكومة للحد من هذه الاضطرابات عن طريق توطين البدو، فأصدرت في ١١ نوفمبر ١٨٦٣م أمرًا إلى تفتيش عموم الأقاليم يقضي بعدم جواز تصرف البدو في الأطيان المعطاة لهم بالبيع أو الهبة أو الاستبدال أو الرهن أو غير ذلك من دروب التصرف، وأن لا تنتزع الأطيان من أيديهم ما داموا يسددون ما عليها من أموال، بشرط أن يتركوا سكنى الخيام، وتئول هذه الأطيان إلى الدولة إذا لم يكن هناك من يستحق أن يأخذها[3].

كما لجأت الحكومة إلى استخدام القوة العسكرية من أجل توطين العربان، عن طريق ردعهم عسكريًّا للتخلص من أعمال السلب والنهب والسرقة والقتل، وأن يسكنوا المنازل ويتركوا الخيام ومن يفعل غير ذلك يعرض نفسه للعقاب[4].

ولعبت بعض قبائل العربان دورًا سلبيًا في الثورة العرابية عام ١٨٨١م، وكان من أولئك عرب الهنادي في البحيرة بوادي النطرون بقيادة شيخهم محمود سلطان، الذي وضع نفسه في خدمة معارضي الثورة، وأصبح الواسطة بين عربان الوادي والخديوي توفيق (١٨٧٩-

---

(١) محافظ الأبحاث: محفظة ١٤٦، دفتر ١٩١٤ أوامر، أمر كريم إلى مديرة البحيرة، رقم ٧، ١٥ شعبان ١٢٨١هـ/ ١٣ يناير ١٨٦٥م، ص ٢٠.

(٢) معية سنية تركي: دفتر رقم ١٩٢٣، صادر أوامر، أمر كريم إلى تفتيش عموم الأقاليم، رقم ٤٩، ٦ ذى الحجة ١٢٨٣هـ/ ١١ إبريل ١٨٦٧م، ص ٧٠.

(٣) محافظ الأبحاث: محفظة ١٤٠، دفتر ١٩٠٧ أوامر، أمر كريم إلى ديوان المالية، رقم ٣٢ ، ٢٨ جماد أول ١٢٨٠هـ/ ١١ نوفمبر ١٨٦٣، ص٥٠؛ رءوف عباس: الملكيات الزراعية، المرجع السابق، ص ٩٥-٩٦.

(٤) محافظ الأبحاث: محفظة ١٤٠، دفتر ١٩٠٧، أوامر، أمر كريم إلى ديوان المالية، رقم ٣٢، ٢٨ جماد أول ١٢٨٠هـ/ ١١ نوفمبر ١٨٦٣، ص ٥٠.

١٨٩٢م) الذي مضى في التقرب إليهم، حيث وعد أقرانه بالرتب والأوسمة على أن يبذلوا الطاعة للخديوي والإنجليز، وينبذوا طاعة الثوار، وسار على طريقة معينة اتصف بها، وهي إحياء العداء والغيرة بينهم وبين الفلاحين[١] كذلك قبيلة أولاد علي بالوادي أمكن للخديوي شراء قائدها ودعمه بثلاثة آلاف فارس في مقابل حصولها على عشرين ألف جنيه[٢].

وواصلت سلطات الاحتلال البريطاني لمصر خلال الفترة ما بين (١٨٨٢-١٩١٤م) سياسة استخدام القوة العسكرية لردع اعتداءات العربان على قرى وادي النطرون حتى لا يعرقلوا مصالحها الاقتصادية مثل تجارة النطرون، وشركة الملح والصودا، ومشروعات الري واستصلاح الأراضي، أو سير مراكبها بالنيل ما بين القاهرة والإسكندرية أو رشيد[٣] والحفاظ على الأمن بتوطينهم من خلال تشديد العقوبات التي توقع على ساكني الخيام وقطاع الطرق والعصابات المسلحة من العربان وتأديب شيوخهم، مثلما مارست ذلك على قبيلتي أولاد علي والحرابي[٤].

وبالرغم من الدور السلبي للعربان، فإنه كان لهم أيضًا دور إيجابي في وادي النطرون فقد ذكر معظم الرحالة أن العربان عملوا كدليل للزائرين الأجانب لوادي النطرون[٥]، وأشار أندريوسى أن عربان وادي النطرون عملوا في عملية نقل النطرون من الوادي إلى الطرانة[٦]. بالإضافة إلى ممارسة حرفة الرعي وتوفير المنتجات الحيوانية من اللحوم والألبان والجلود، كما كان بعض العربان يقومون بحراسة الأديرة وقوافلها من القاهرة إلى الوادي[٧].

---

(١) لطيفة سالم: القوى الاجتماعية في الثورة العرابية، المرجع السابق، ص، ٢٥٠-٢٥١.

(٢) محافظ عابدين: محفظة رقم ٥٥٥، مذكرة إيضاحية عن قبيلة أولاد علي في البحيرة، منذ مجيئها حتى سنة ١٩٠٣م.

(٣) شركات وجمعيات: مجلس الوزراء: محفظة ١٧٠، ١/ أ، ١٩ إبريل ١٨٩٩م.

(٤) محافظ مجلس الوزراء: مجلس النظار، محفظة ٥/ ب، ٢٠ شعبان ١٣٠٧هـ/ ١٠ إبريل ١٨٩٠م.

(٥) مرتيروس السرياني(الراهب): المرجع السابق، ص١٥٨.

(٦) تأليف علماء الحملة الفرنسية:ج٢، المرجع السابق ص ٤٩.

(٧) نفسه: ص٦٦.

ومنذ بداية حكم محمد علي باشا (١٨٠٥م) وقيامه بتوطين العربان، احترفت بعض القبائل ومنها بنو عونة وأولاد على والجميعات حرفة الزراعة، وساهمت في إنتاج المنتجات الزراعية، بالإضافة إلى منتجات الرعي[١]. كما استعان الباشا بمشايخ عربان الوادي من أجل توفير وشراء الخيول والجمال اللازمة لإعداد الجيش لحروبه، مثلما قام باستدعاء الشيخين حمد المقرحي وعمر هنداوي لشراء صفقة خيول من عربان وادي النطرون، وجمال من المغرب[٢] وعندما أراد تحسين سلالة الأبقار في مصر، استعان بهم لشراء أبقار من السودان[٣] كذلك استخدم بعضهم في الرعاية البيطرية للثروة الحيوانية لخبرتهم بها[٤].

كما ساهم عربان وادي النطرون بتقديم جمالهم للمحمل الشريف ومنهم عربان الهنادي، بالإضافة إلى نقل الغلال والمؤن والبريد والمرتبات إلى الحجاز[٥] كما استخدمت خيولهم وجمالهم لمرافقة رجال الدولة أو ضيوفهم من الأجانب في ترحالهم وسفرهم داخل الوادي[٦].

كذلك اعتمدت عمليات اقتلاع النطرون من مغارته وحراسته ونقله وتجارته –على نحو ما رأينا– على عربان الجميعات والحرابي والسمالو[٧]. وساهم عربان وادي النطرون في نظارة

---

(١) مديرية البحيرة: س ٨٣٥، وارد إلى سايرة، وثيقة ٣١٨، ٢٨ شوال ١٢٦٤هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٨٤٨م، ص ١٢٤.

(٢) معية سنية عربي: دفتر ٨، أوامر، أمر كريم إلى شيخ عربان الجميعات، وثيقة ٤٣، ٢٨ صفر ١٢٥٢هـ/ ١٥ يونيو ١٨٣٦م، ص ٣٥.

(٣) نفسه: دفتر ٣٣، من الجناب العالي إلى مأمور نصف البحيرة، وثيقة ١١٨، ١٠ ربيع الأول ١٢٤٣هـ/ أول أكتوبر ١٨٢٧م، ص ٩٤.

(٤) نفسه: محفظة ١٨، ملخصات دفاتر، وثيقة ٣٩، ١٢ ربيع الآخر ١٢٥٢هـ/ ١٦ يوليو ١٨٣٧م.

(٥) لمزيد من التفصيل انظر: إيمان محمد عبد المنعم، المرجع السابق، ص ١٨٩-١٩١.

(٦) ديوان شورى المعاونة: دفتر ١٥٨، أمر إلى مدير نصف البحيرة، وثيقة ١٠٨١، ذو الحجة ١٢٥٣هـ/ ١٦ إبريل ١٨٣٨م، ص ٢١٢.

(٧) مديرية البحيرة: س ٢٣٥، صادر الفروع إلى سايرة، وثيقة ٢٠٠٨، ٤ شعبان ١٢٦٢هـ/ ٢٨ يوليو ١٨٤٦م، ص ٣٧٨.

بعض النواحي، فعلى سبيل المثال صدر إشعار برفع محمد المقرحي شيخ عربان أولاد علي من نظارة سيوة وإسنادها إلى شيخ عرب الجميعات هنداوي أبو الدهب مع إلزام عربان سيوة بدفع ما عليهم سنويًّا له(١٢ ألف قرش)[١].

وقد استعان عباس الأول (١٨٤٨- ١٨٥٤م) بعربان وادي النطرون من أجل إعادة الأمن إليه، كما حدث عندما لقي كل من خير الله محمد ومحمد أبو قلادة من عربان الجميعات مصرعهما على يد حمد خطاب، وهروبه من سجن دمنهور[٢] وإلزام مشايخ عربان أولاد علي بالبحث عنه وتقديمه للعدالة[٣] كذلك أسند إليهم الإبلاغ عن الأشقياء من أقرانهم والمتسحبين من قراهم[٤].

واعتمد محمد سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٣م) على بعض قبائل عربان وادي النطرون للقضاء على ثورتهم في الفيوم، فاستعان بشيخ عربان السمالو عوض كرمة وأخيه خليفة للتجسس على أقرانهم الثوار وضبطهم والقضاء علي ثورتهم، وكافأهم مقابل ذلك بمبلغ ٥٠٠٠ قرش[٥] كذلك كلف شيخ عربان الجميعات عمر الهنداوي بالتوجه بقبيلته بعد إمداده بـ ٢٥٠٠ أقة بقسماط إلى صعيد مصر لقضاء مأموريته في ردع إحدى قبائل العربان[٦]. كما استعان سعيد

---

(١) معية سنية عربي: دفتر بدون رقم ، أمر من خليل أفندي إلى بعض مشايخ سيوة، وثيقة ٢٢٨، ١٨ أكتوبر ١٨٣٤م، ص ١٢٦.

(٢) مديرية البحيرة: س ٣٠٢، وثيقة ١٧٥، صادر الفروع إلى سر سواري خليل أغا، بياريخ ١١ ربيع الثاني ١٢٦٩هـ/ ٢٢ يناير ١٨٥٣م، ص ٧٤٤.

(٣) نفسه: مادة ١٨٦، ١٨ ربيع الآخر ١٢٦٩هـ/ ٢٩ يناير ١٨٥٣م، ص ٧٧٦.

(٤) معية سنية عربي: دفتر ٦٦، من المعية السنية إلى مديرية البحيرة، ٥ من ذي القعدة ١٢٦٧هـ/ الأول من أكتوبر ١٨٥٠م، ص ٢١.

(٥) ديوان خديوي: محفظة رقم ٨، من محمد فاضل لواء الطوبجية السعيدية إلى الخازن الخديوي، وثيقة ٤٨٠، ١٦ محرم ١٢٧٢هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٨٥٥م.

(٦) معية سنية عربي: دفتر ١٨٢، ج١، أوامر، أمر كريم إلى ديوان المالية، وثيقة ١٣٨، ٢٢ شوال ١٢٧١هـ/ ٧ يوليو ١٨٥٥م، ص ٤٩٢.

باشا بعربان وادي النطرون للعمل في الجيش، وكان عملهم أساسًا في فرق الفرسان، وكلفوا بأن يحضروا خيولهم معهم[١] وبالرغم من اعتراض العربان على التجنيد فقد حفلت الوثائق بالأوامر إلى مشايخهم بدعوة أبنائهم إلى الجهادية، ومن ذلك صدور أمر إلى مشايخ عربان أولاد علي والجميعات والحرابي بتقديم مائتين منهم للتجنيد[٢].

وكذلك اعتمد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣- ١٨٧٩م) على عربان وادي النطرون في تأدية بعض المأموريات الأمنية خارج حدود مصر، كما نرى من تكليف شيخ عربان الجوابيص رحيم تعلب وآخرين بالتوجه إلى طرابلس الغرب (ليبيا) لإحضار بعض المتهمين ومنهم شيخ عربان محايد نعومة الذي شق عصا الطاعة في عهد سعيد باشا ونفي إلى الأستانة (تركيا) ولكنه هرب إلى طرابلس[٣] كذلك إحضار الأفراد المتهمين بقتل من يدعى الصابر أبو مسعود من جماعة الجوابيص، لملاقاة جزائهم والحفاظ على أمن البلاد[٤].

وكذلك أسند الخديوي إسماعيل إلى بعض قبائل عربان وادي النطرون؛ مهمة تأمين منطقة قناة السويس أثناء حفلة افتتاحها للملاحة الدولية في ١٧ نوفمبر ١٨٦٩م، بالإضافة إلى مشاركة بعض مشايخ عربان الوادي في تقديم عرض للخيالة بمصاحبة الاحتفال[٥]. وبالرغم من أن أصابع الاتهام تشير إلى أن العربان كان لهم دور أساسي في هزيمة العرابيين بخيانتهم لهم؛

---

(١) مديرية البحيرة: س ١٢٣، صادر دواوين للجهادية، وثيقة ١١٥، ١٩ جماد أول ١٢٧٧هـ/ ٤ ديسمبر ١٨٦٠م، ص ٩٢.

(٢) ديوان معية سنية عربي: س ١/ ٩/ ٣، وثيقة ١٨، ١٣ ربيع الأول ١٢٧٧هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٨٦٠م، ص٤٧.

(٣) نفسه: محفظة ٧، دفتر ١٣٢، من محمد فاضل إلى خازن الخديوية، وثيقة ٢٦٩، غرة ذي القعدة ١٢٨١هـ/ ٢٨ مارس ١٨٦٤م.

(٤) مديرية البحيرة: س ٤٢١، صادر فروع لسرسواري، وثيقة ٦١، ١٣ محرم ١٢٨٣هـ/ ٢٨ مايو ١٨٦٦م، ص ١٩١م.

(٥) نفسه: س ١٠٤٠، ج٥، وارد الفروع إلى سرسواري، وثيقة ٣٠٦، ١٥ شعبان ١٢٨٦هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٨٦٩م، ص ٥٤.

مما أدى إلى سقوط البلاد تحت سيطرة الاحتلال البريطاني ١٨٨٢، فلم يكن كل العربان على شاكلة واحدة فهناك عدة إشارات بالوثائق تؤكد مساندة قبيلتي الجميعات والحرابي للثوار[١] كذلك شارك الباسل شيخ قبيلة الرماح المنتشرة فيما بين وادي النطرون والفيوم في إمداد الثوار بالمؤن، وشارك ابنه محمود الباسل مع الثوار وقبض عليه، وصدر حكم بإعدامه رميًا بالرصاص، ولكنه استطاع الهرب، فقبض الإنجليز على أخيه رحيم وأُعدم بدلًا منه بناء على حكم صدر من المحاكم الإنجليزية[٢].

كما شهدت الفترة ما بين (١٨٨٢-١٩١٤م) اعتداءات العربان المستمرة على جنود ومراكب الإنجليز، وشاركهم الفلاحون في هذه الاعتداءات منددين بسياستهم ومطالبين بالجلاء عن البلاد[٣].

- الشوام والمغاربة والسودانيون:

ذكر الرحالة المغربي ابن سعيد الذي زار مصر في سلطنة نجم الدين أيوب عام(٦٣٩ هـ/ ١٢٤١م) أن تجارة مصر الخارجية كانت مزدهرة فكنت مصر تصدر العديد من الأصناف إلى بلاد الشام وبلاد المغرب، وربما كان ذلك وراء إقامة العديد من الشوام والمغاربة بمصر[٤]. كما أن وادي النطرون كان أحد الطرق الرئيسة للمغاربة لاداء مناسك الحج،فقد ذكر الرحالة العبدري قائلًا: «لم يتذمر المغاربة من سداد الضرائب على الحجاج المغاربة عند ثغر الإسكندرية». فقد أكد العديد من الرحالة أن بعض الحجاج فضل المعيشة في الإسكندرية عقب اداء فريضة

---

(١) مديرية البحيرة: س ٢٣٠، صادر دواووين إلى سايرة، وثيقة ١٩٦، ١٠ ذي الحجة ١٢٩٩هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٨٨٢م، ص ١٧٣.

(٢) وطني: عدد ٢٣٧٠، ١٠ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٧ مايو ٢٠٠٧م، ص ١٤.

(٣) محافظ الأبحاث: محفظة ١٢٥، أوراق ومستندات تتعلق بالثورة العرابية الاحتلال البريطاني، دوسيه ٣، وثيقة بدون رقم، ٢٨ أغسطس ١٨٨٢م.

(٤) أماني بنت سعيد الحربي: مصر خلال كتابات الرحالة المغاربة في القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، رسالة ماجستير، كلية الشرعية والدراسات الإسلامية، ١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥م، ص ٢١٧.

الحج[1] وعقب الثورة المورسكية (٩٧٦ هـ/ ١٥٦٨م) زادت هجرة المغاربة لمصر[2]، وذكر أحمد شلبي عبد الغني أنه في عام (١١٣٨ هـ/ ١٧٢٥م) وصلت أعداد كبيرة منهم واستقرت بمدينة الإسكندرية وعملت بالعديد من الأنشطة الاقتصادية[3]، بالإضافة إلى طلاب العلم من أجل الدراسة[4].

على أية حال، احتلت طبقة العرب مكانة بارزة بين مجتمع وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر، فوفد الشوام للعمل بالتجارة، وازداد عددهم وامتزج هؤلاء بالمصريين، وأقاموا بالطرانة والبريجات وأبي نشابة، وحققوا أرباحًا عالية، ولسهولة تعامل المسيحيين منهم مع الأوروبيين من حيث إجادة اللغات عمل بعضهم بالإدارة [5]، وقد عرفوا بالمهارة في محاسبة أنواع التجارة كافة واشتهر منهم بطرس طويل بالوادي بالترجمة لجنرال دولة الولايات المتحدة الأمريكية[6] وآدم حنا بتجارة القطن بالخطاطبة[7] وأنطوان بالصاغة بدمنهور[8].

وكثر وفود المغاربة إلى وادي النطرون، واستقروا في نواحٍ متعددة بها، وعملوا بالتجارة واشتهر من بينهم محمد السنوسي[9] وعبد اللطيف غالب من تونس[10] وعبد الحميد غربال

---

(١) نفسه: ص٢٢٧-٢٢٩.

(٢) حسام محمد عبد المعطي: العائلة والثروة - البيوت التجارية في مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨م، ص ١٧.

(٣) أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري (١٧٣٧ / -١١٥٠م): أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات : الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم،مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٣٠٥.

(٤) حسام محمد عبد المعطي: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٥) جوان كول: المرجع السابق، ص ٧٢.

(٦) مجلس الأحكام: س٧/ ٦/ ٤٨، صادر الأقاليم البحرية إلى مديرية البحيرة، مكاتبة رقم ٤، ٢٨ شعبان ١٢٩٢هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٨٧٥م، ص ١٤.

(٧) محكمة البحيرة: س ١٣١، مبايعات، م ١٨، ١٠ ذي الحجة ١٢٨٨هـ/ ٢٠ فبراير ١٨٧٢م، ص١٦.

(٨) نفسه: س ١٣٩، م ١٥٧، ١٧ ربيع أول ١٢٩١هـ/ ٣ مايو ١٨٧٤م، ص ١٢٧.

(٩) نفسه: س ١٦١، م ١٦، ٢٠ جمادى الآخرة ١٢٩٧هـ/ ٣١ مايو ١٨٨٠م، ص ٣٨.

(١٠) نفسه: س ١٢٥، م ٣٠، ٢٩ محرم ١٢٨٧هـ/ ٢ مايو ١٨٧٠م، ص ١٩.

وأحمد عبد الله[1] من المغرب[2]. كما وفد السودانيون إلى وادي النطرون، وعلموا بالزراعة ودبغ وصناعة الجلود والتجارة، واشتهر من بينهم صالح بركات بالأخماس[3] وإبراهيم مرجان بالطرانة[4].

- الأوروبيون:

الحقيقة التاريخية أن كثيرًا من الرحالة ركزوا حديثهم عن الجاليات الأوروبية التي يقوم أفرادها بالتجارة، ولقد أشار بعض الرحالة لأهم المنتجات التي يحصل عليها الفرنسيون من مصر مثل القطن، والجلود، والأرز، وبعض العقاقير الطبية، وريش النعام، ولما كان بيلون عالما طبيعيا فقد اهتم بذكر أنواع العقاقير الطبية والنتران، أما ما يبيعه التجار الفرنسيون في مصر فقد ذكر دار فيو بأنه قليل ولكن أغلبه من منتجات الجوز من نورماندى وبروفانس، وقد واجهت الجالية الفرنسية بعض المصاعب مثل إغارات القراصنة وسو تنظيم الايكالة المصرية ومنازعات القناصل - بالإضافة إلى دفع الجمارك في الإسكندرية - وبولاق- كذلك تعرض التجار لاغارات البدو في الطريق من الموانى لمدينة القاهرة والمدن الأخرى، بالإضافة إلى الغرامات التي كانت تفرض عليهم. ومن الجدير بالذكر خصصت في القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد خانات للتجار، ويعد المغاربة من أهم الجاليات التي لعبت دورا مهما في التجارة الداخلية والخارجية[5].

وقد وصف جوهان ميشيل فانسليب الدومنيكاني (١٦٣٥-١٦٧٩م) الذي زار وادي النطرون في عام ١٦٧٢ م، الأجانب في الطرانة والوادي وجمع مادة قيمة عن تجارة النطرون والقائمين عليها وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، بينما أشار جون جاردنر ويلكنسون الذي زار

---

(١) نفسه: س ١٦٢، م ٨٩، ٢٤ رمضان ١٢٩٧هـ/ ٣٠ أغسطس ١٨٨٠م، ص ١٤٩.

(٢) تقارير النظر: س ٢٨، م ٥٨٤، ٩ ربيع الثاني ١٢٦٩هـ/ ٢٢ فبراير ١٨٥٠م، ص١٠٤.

(٣) مديرية البحيرة: س١٠٤٠، ج٥، وارد الفروع لقسم النجيلة، وثيقة ١٢٠٣، ١٨ ربيع الآخر ١٢٨٦هـ/ ٢٨ يوليو ١٨٦٩، ص ٢٥.

(٤) نفسه: س ٢٢٩، صادر إلى سايرة، وثيقة ٥، ٢٨ جماد أول ١٢٩٥هـ/ ٣٠ مايو ١٨٧٨م، ص ٢٣.

(٥) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص ٨١-٨٢.

برية شيهيت في عام ١٨٤٣م[١]. إلى القيمة الاقتصادية والاجتماعية لمصنع الزجاج الذي جذب الكثيرين للإقامه بجواره ومنهم الكولونيل ليك صاحب بيت الزجاج الذي يرجع تاريخ تشييده للعصر الروماني، القريب من قرية زاكيك التي أنشئت في عام ١٨٣١م، وكان يسكنها العديد من العاملين في مجال النطرون وتجارته[٢].

على أية حال،قد احتل الأوروبيون مكانة بارزة بين سكان وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر، وترجع بداية تغلغلهم إلى عهد محمد علي الذي استعان بهم في مشروعاته[٣] ومع تصفية دور الدولة في إدارة الاقتصاد وتحرير التجارة ازداد نزوحهم من جنسيات متعددة إلى مصر، فعملوا في الأنشطة الاقتصادية كافة بما فيها المتواضعة، وأتيح لهؤلاء أن يتوغلوا في شتى أنحاء البلاد[٤].

ففي وادي النطرون وجد اليونانيون وانتشروا في نواحيه وأهم ما يميزهم عن غيرهم من الأجانب، أنهم كانوا أكثر الجاليات تداخلًا مع الأهالي وتماسكهم وترابطهم فيما بينهم، ولذلك تفوقوا في التجارة الداخلية وبصفة خاصة تجارة التجزئة وكان منهم ذو النشاط البارز، ومن أشهر تجارهم بمدينة دمنهور والوادي الخواجة خرستو أنطون[٥] وبنايوتي ديمتري[٦] والخواجة جورجي[٧] والخواجة نقولا[٨] وقسطندي مخالي البقال[٩].

---

(١) سمعان السرياني، الراهب: المرجع السابق، ص ٩٣.

(٢) هيوج.ج. إيفلين هوايت: المرجع السابق، ص١٧٨.

(٣) أمين مصطفي عفيفي: تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث،مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٤م، ص ٦٩.

(٤) صالح رمضان محمود: الجاليات الأجنبية في مصر في القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، قسم تاريخ، جامعة القاهرة ١٩٧٠م، ص ٤٨؛ نبيل عبد الحميد، الأجانب وأثرهم في المجتمع المصري (١٨٨٢-١٩٢٢م) رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٧٦، ص ٥٧.

(٥) محكمة البحيرة: س ١٣٥، م ٢٠، ٢٩ محرم ١٢٩٠هـ/ ٢٩ مارس ١٨٧٣م، ص ٢٠.

(٦) نفسه: س ١٢٥، م ١٤٦، ١٧ ربيع الآخر ١٢٨٧هـ/ ١٧ يونيو ١٨٧٠م، ص ١٥٦.

(٧) مديرية البحيرة: س ٢٠٥، صادر الدواوين لمحافظة الإسكندرية، وثيقة ٤٠، ١٧ شوال ١٢٩١هـ/ ٢٧ نوفمبر ١٨٧٤م، ص ٨.

(٨) نفسه: س ١٧٥، قضايا، صادر الدواوين للخارجية، ١٢ ذي القعدة ١٢٨٦هـ/ ١٧ فبراير ١٨٧٠م، ص ١٨٨.

(٩) مجلس الأحكام: س ٧/ ٦/ ٣٢، صادر الأقاليم البحرية إلى مديرية البحيرة، مضبطة ٨، ٧ رجب ١٢٨٢هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٨٦٥م، ص ٦.

وقد احتكر الإيطاليون تجارة النطرون، ونجحوا في أعمالهم الواسعة مع اختلاطهم بالأهالي وتركزوا بالإسكندرية والطرانة، وكان أشهر تجارهم الخواجة بافي[١] وجوني أنطونيوس[٢] وأجلان كستيلي[٣] والخواجة إميل باشوه ولكثرة تجارته اتخذ فريكوا جوارتيوه وكيلًا عنه[٤].

كذلك أصبح للفرنسيين مكانة عظمى في مصر بعد افتتاح قناة السويس في عهد الخديوي إسماعيل؛ فاحتكروا تجارة المنسوجات الحريرية والدانتلا، وتجارة الأقطان والنطرون والغلال، كما مارسوا السمسرة[٥]. وانتشروا في وادي النطرون في الطرانة والأخماس والخطاطبة، واشتهر منهم الخواجة إسكندر لا سكريس[٦] والموسيو بونفايتي[٧].

أما الأرمن، فقد علموا في شتى الأنشطة الاقتصادية لامتيازهم بالمهارة اليدوية[٨] وتفوقوا في تجارة التجزئة[٩] والنطرون، واشتهر من بينهم بالوادي الخواجة كركور[١٠] ويوسف الأرمني[١١] وقرابيت أغوبيان[١٢].

---

(١) عمر طوسون: المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢) محكمة البحيرة: س ١٤٨، م ١٣٤، ٢٥ شوال ١٢٩٣هـ/ ١٣ نوفمبر ١٨٧٦م، ص ١٧١.

(٣) نفسه: س ١٨٧، م ٥، ١٤ ذي الحجة ١٣٠٥هـ/ ٢٢ أغسطس ١٨٨٨م، ص ٥.

(٤) محكمة الإسكندرية: س ٤، إشهادات، م ١٧٤، ١٠ شوال ١٢٨٢هـ/ ٢٦ فبراير ١٨٦٦م، ص٦٩.

(٥) محافظ مجلس الوزراء: محفظة ١/ أ، مجموعة ١٣، وثيقة بدون رقم، ٢٥ ديسمبر ١٨٨٨م.

(٦) محكمة البحيرة: س ١٨٤، م ٧٥، ١٠ رمضان ١٣٠٤هـ/ ١٥ مايو ١٨٨٧م، ص٩١.

(٧) نفسه: س ١٨٧، م ٨، ٢٧ ذي الحجة ١٣٠٥هـ/ ٤ سبتمبر ١٨٨٨م، ص٨.

(8) Issaiw , Charles: Egypt at Mid-Century An Economic Survey, London 1954, P. 73.

(9) Kredian, Armin: The private papers of an American Merchant Family in the Ottoman Emp - re, 1912- 1914 «In» Money Land and Trade. An Economic History of The Muslim Mediterranean, New York 2002. P. 150.

(١٠) مجلس الأحكام: س ٧/ ٦/ ٥٠، مكتابة ٢٩، صادر الأقاليم البحرية إلى مديرية البحيرة، ٢٢ ذو الحجة ١٢٩٥هـ/ ١٧ ديسمبر ١٨٧٨م، ص ١٧٩.

(١١) مديرية البحيرة: س ٨٧٥، م ٢٥، ١٦ محرم ١٢٧٠هـ/ ١٩ أكتوبر ١٨٥٣م، ص١٨.

(١٢) نفسه: س ٢٠٥، صادر الدواوين لمحافظة الإسكندرية، م ٤٠، ١٧ شوال ١٢٩١هـ/ ٥ مارس ١٨٧٤م، ص٨.

وقد احتكر الإنجليز بالوادي تجارة الغلال والأرز والحمص والكتان والنطرون، واشتهر منهم الخواجة بيتر[١] وجورجي[٢].

أما الألمان، فمنذ بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كانوا يتاجرون في الأدوات الصينية والكرتون والقطيفة والحديد والمصابيح والطرابيش وأدوات المائدة والعطور[٣]، واستثمروا في الوادي صناعة الصابون اعتمادًا على مادة النطرون فاحتكروا تجارته حتى سنة ١٩١٤م، واشتهر من بينهم الخواجة أندريا[٤]. كذلك انتقل إلى وادي النطرون عدد من النمساويين لارتباطهم بتجارة النطرون، ومنهم من عمل بمهن متواضعة مثل الدلالة والسمسرة[٥]، والصباغة ودبغ الجلود، وعلى نحو ذلك كان نشاط المالطيين والإسبان والبلجيك[٦].

- العادات والتقاليد:

لم يفت الرحالة الزائرون لوادي النطرون أن يتحدثوا عن العادات والتقاليد بشكل عام، حيث ذكر جلبير جوزيف جاسبار كونت دى شابرول قائلًا: «إن العادات تتنوع بنفس الطريقة التي تشكلت بها فئات السكان بمختلف أديانهم وأصولهم. فنحن نجد في المدن – مع شيء من الاختلاف – نفس عادات الشعوب الشرقية، ولقد كان هذا الاختلاف أمرًا ضروريًّا بسبب طبيعة التربة وتأثير الطقس. أما في الريف وفي الصحارى فسوف نتعرف على رجل العصور

---

(١) ديوان شورى المعاونة: محفظة ١٩، ملخصات دفاتر، دفتر رقم ٢٨٤، من ديوان المعاونة إلى ذكي أفندي، وثيقة ١٢٩٣، ١٨ جماد أول ١٢٥٧هـ/ ٨ يوليو ١٨٤١م، ص١٤.

(٢) ديوان التجارة والمبيعات: س ٥٢٩٧، وارد قيد القرارات، وثيقة ٣٢٤، ١١ جمادى الثانية ١٢٦٨هـ/ ١٥ إبريل ١٨٥٢م، ص ٢٤٣.

(٣) أحمد الشربيني: المرجع السابق، ص ٤٥.

(٤) محكمة البحيرة: س ١٨٦، م ٤، ٦ جماد أول ١٣٠٥هـ/ ١٩ يناير ١٨٨٨م، ص٥.

(٥) لمزيد من التفصيل انظر: ماجد إسرائيل، طوائف المهن التجارية، المرجع السابق، ص ١٧، ٥٣، ٥٤.

(٦) مديرية البحيرة: س ٢٠٥، صادر الدواوين لمحافظة الإسكندرية، وثيقة ٤٠، ١٧ شوال ١٢٩١هـ/ ٢٧ نوفمبر ١٨٧٤م، ص ٨.

الأولى ببساطة أذواقة. هذا إذا لم تكن العصور المنصرمة قد تكفلت بإتلاف فطرته»[1]. وبناء على ذلك فإن العادات والتقاليد الاجتماعية تعد عاملًا جوهريًّا من أكبر وأقوى عوامل التنظيم والضبط في علاقات الأفراد وتماسكهم، فهي تسهل لهم أفعالهم وتحدد منطق الترابط والتعامل فيما بينهم[2].

ويذكر شابرول أن كل فئات الشعب المصري تتحدث اللغة العربية، وقد تعلَّم الأقباط هذه اللغة، وإذا كان بعض العثمانيين قد احتفظوا بلغتهم الأم فقد كان ذلك يحدث فيما بينهم، وفي علاقاتهم مع ضباط الباشا الذين يحكمون مصر باسم السلطان. وقد نسيت اللغة اليونانية تمامًا، أو قل إنها قد انكمشت في دائرة صغيرة من تجار هذا الشعب (اليوناني) الذين يقيمون في مدينتى القاهرة والإسكندرية. ولا يمكنك أن تكشف ما يدور في نفس المصريين عن طريق ملامحهم، فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم. وشكلهم الخارجي في كل ظروف حياتهم يكاد هو نفسه، اذ يحتفظون في ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم في نشوة من سعادة عارمة، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد أو يغلون في داخلهم من الغضب أو يتحرقون للانتقام. فليس ثمة مطلقًا فعل منعكس: احمرار في الوجه أو شحوب مفاجئ، يستطيع أن يشي بصراع تلك العواطف العديدة التي تهزهم. وقد يمكنا أن نتلمس أسباب عديدة لهذا الجمود يأتى على رأسها الطقس، وقد اعتقدوا في القضاء والقدر، وتعودوا على الدوام نزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم على البلاد.[3]

على أية حال، تمسك أهالي وادي النطرون خلال فترة الدراسة ببعض العادات والتقاليد التي صاحبت مختلف أحداث حياتهم ومناسباتها الاجتماعية، وشكلت شيئًا مهمًّا لديهم فحافظوا عليها والتزموا بها، كنوع من التشبث بتراث متوارث عن الآباء والأجداد، وكشكل من أشكال

---

(١) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج١، ص ٤٣.

(٢) فوزية دياب: القيم والعادات الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ١١٢.

(٣) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج١، ص ٤٤.

الخصوصية تميزهم بين المجتمعات الأخرى في إطار المجتمع الريفي المصري، الذي كان من الرحابة والمرونة بحيث سمح بوجود خصوصية تميز بين مجتمع وآخر، وخاصة في هذا الجانب، نظرًا لتعدد وتنوع ثقافاتهم، ووجود اختلافات في النظم الاجتماعية بين منطقة وأخرى[١].

وغلب الكرم على صفات مجتمع وادي النطرون، وكان من أفضل صفاتهم، ويرجع ذلك لوجود قبائل العربان التي اتسمت بتلك الصفة، فإذا أقبل ضيف عند قبيلة من القبائل تسابقوا لاستضافته أو تناوبوا أداء واجب الضيافة، لا يتأخر البدوي عن خدمة ضيفه ويبذل كل غالٍ لديه وهو راض تمامًا ما دام يؤدي واجب الضيافة الذي يعتبره واجبًا مقدسًا، وقد يعطي هذا الواجب الحق في أن يأخذ البدوي من غنم جاره لإكرام ضيفه على سبيل السلف أو «العداية» على أن يرد له ما أخذه مرة أخرى[٢].

كما تميز مجتمع وادي النطرون بصفات الحرية في القول والبساطة والصبر والمثابرة والإخلاص والأمانة، وعدم الخضوع للجبر والإهانة[٣] كذلك انتشر بين قبائل عربان الوادي عادة الافتخار بالأنساب، والاعتزاز بالنفس والأنفة وحب السيطرة واحترام صغيرهم كبيرهم، حتى إنه ليكف عن شرب القهوة والمزاح في مجلسه[٤] ومن ذلك تركهم دابتهم على بعد مائة خطوة من الشخص الذي يذهبون إلى لقائه، إذا كانوا يجلونه ويتقدمون إليه سائرين على أقدامهم[٥].

وغالبًا ما ساد القضاء العرفي في الفصل في المنازعات التي تنشأ بين قبائل العربان المنتشرين بالوادي أو بينهم وبين فلاحي نفس المنطقة، فكان شيخ القبيلة ورئيسها لا يتمتع إلا بالشخصية الاعتبارية، ذلك لأنه عندما كانت تصل إليه الشكاوي من أعضاء القبيلة أو من فلاحي الوادي، كان عليه أن يجمع كل أفراد القبيلة للفصل فيها، وكانت أغلبية الأصوات هي التي تحدد ما

---

(١) نفسه، ص ٣٧.

(٢) إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص٢٥٠.

(٣) محمود على سيف: المرجع السابق، ص ٢١٨.

(٤) إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٢٥١.

(٥) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج٢، ص٧٠.

الذي يجب عمله، أي إنهم كانوا يأخذون بمبدأ الشورى[١]. ومثال ذلك ما حدث عندما تعدى أبناء قبيلة الجوابيص على حقول فلاحي كفر داود، فتصدى لهم ثلاثة من أبناء الناحية، وكان أن انتهى الأمر بإجابتهم، فعُقد مجلس عرفي يتكون من شيخ عربان الجوابيص ثعلب كرعيد، وشيخ عربان الجميعات مصري أبو الذهب وحسني الديب شيخ الناحية، والذي حكم بدفع شيخ الجوابيص مبلغ مائة وسبعين ريالًا، يحصل كل من محمد أبو شنب وعياد حسن على ستين ريالًا، أما الخمسون ريالًا الباقية فكانت من حق ثالثهم مطيريد أبو زهران، وذلك لإنهاء الصراع فيما بينهما سلميًّا[٢].

ومن العادات المتأصلة بمجتمع وادي النطرون، عادة الأخذ بالثأر، ويرجع ذلك إلى غلبة التأثر بحياة البدو الذين يسيرون على شريعة المثل بالمثل، أي إنه إذا قتل منهم واحد قاموا بقتل مثله في القبيلة القاتلة، انتقاما، فلا يهدأ بالهم إلا بعد أخذ ثأرهم وانتصارهم على العدو[٣]. وقد يميلون في بعض الأحيان لوقف نزيف الدم مقابل دفع الدية، مثلما قدم المدعو عنتر الشيخة من إحدى قرى الوادي عريضة لذوي الشأن، مفادها أنه يعاني السجن في الليمان، بالرغم من أنه تصالح مع أولياء الدم ودفع ديته[٤]، وغالبًا ما كانت الدية تقدر بحوالي ٤٠٠ جنيه، يدفع منها ٣٠٠ جنيه نقدًا، والمائة الأخرى كمؤخر في صورة حبوب أو مواشٍ[٥].

ومن هذه العادات أيضا عادة النياحة على المتوفي، واللطم على الوجه والصدر، ودهن الوجه بالسواد، وكانت هذه العادة – وما زالت – منتشرة في جميع أنحاء مصر، مدنها وقراها، فلم يكن يتم دفن الميت قبل أن تتم هذه المراسم، لذلك امتهنت بعض النساء هذه المهنة وقامت

---

(١) محكمة البحيرة: س ٢٨، م ٢١٩، غاية ربيع الآخر ١٢١٧هـ/ ٣٠ أغسطس ١٨٠٢م. ص ١٢٨م.

(٢) نفسه: س ٣٧، م ٢، ٩ شوال ١٢٣١هـ/ ٢ سبتمبر ١٨١٦م، ص١.

(3) Minutoli, H. G. M. V: La libye et ses habitants, Nouvelles annales des vayages et des sciences Geoge qannée tome 34, Paris 1827, P.P. 71- 93.

(٤) معية سنية تركي: محفظة ١٨، من حسن أباظة مدير البحيرة إلى المعية، وثيقة ١٤٦، ٢٠ رجب ١٢٧٤هـ/ ٦ مارس ١٨٥٨م.

(٥) محمود على سيف: المرجع السابق، ص ١٨.

بتنظيمها، وربما استعن في عملهن بالدفوف والطارات[١] ومن الجدير بالذكر أن مراسم الجنازة عند المسلمين تشبه مراسم الجنازة عند الأقباط[٢].

وكان من عادة الأهالي في حالات الوفاة أن يجهز الطعام لأهل المتوفَّى يوم الوفاة، وعند رجوع المشيعين من الجنازة يتوجهون إلى منزل المتوفَّى، فيقوم أهله بتقديم الطعام السابق إعداده فيعتذرون ولا يأكلون، ثم تقدم إليهم القهوة فلا يشربون، لأنهم كانوا يعدون تناول الطعام أو الشراب من الأشياء المعيبة التي يتجنبها الجميع في مثل هذه المناسبات[٣].

وقد وصف لنا أندريوسى العلاج من الحمى والأمراض فكان يشتمل على تذكرة تحتوي على بعض الكلمات الصوفية المكتوبة بواسطة درويش يضعها المريض تحت رأسه وكله ثقة بها بعلمه وبالقدرة الإلهية على شفائه[٤] وكذلك العلاج بالطرق البدوية بواسطة الأعشاب النباتية التي تنمو في الوادي[٥] كما اعتقد البعض من الأهالي في السحر والشعوذة[٦].

- الزواج:

الزواج أساس تكوين الأسرة، وهو نظام من أهم النظم الاجتماعية وأخطرها شأنًا في حياة الأفراد والمجتمعات، وهو العلاقة المشروعة بين الرجل والمرأة، ويتم دائمًا وفق أوضاع يقرها المجتمع، وفي حدود يرسمها ويعينها، ويفرض على الأفراد التزامها، ومن يخرج عليها يكون هدفًا للعقاب الذي ينص عليه العرف والقانون[٧].

---

(١) إدوارد وليم لاين: عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ١٨٣٣-١٨٣٥م، ترجمة سهير دسوم، مكتبة مدبولي، ط٢، القاهرة ١٩٩٩، ص ٥٣١، ٥٤٣.

(٢) نفسه: ص ٥٦٣.

(٣) على مبارك: الخطط التوفيقية، المرجع السابق، ج٨، ص ٨٣.

(٤) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج٢، ص٧٢.

(٥) نفسه: ص ٧٣.

(٦) لمزيد من التفصيل انظر: ادوارد وليم لاين، المرجع السابق، ص ٢٧١- ٢٨٦.

(٧) مصطفي الخشاب: دراسات في علم الاجتماع العائلي، ط٢، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٣.

والزواج في وادي النطرون يتسم بسمات تميزه وتطبعه بطابع خاص. وتتجلى تلك السمات المميزة في خضوع الزواج خضوعًا يكاد يكون تامًّا لعادات اجتماعية معينة، تتضمن قيمًا خاصة يتمسك بها الريفيون تمسكًا شديدًا، لدرجة أن جذورها تأصلت ورسخت، فأصبحت عندهم من المسلمات التي حيكت في نسيج ثقافتهم، وصارت من لب التراث الثقافي، يتوارثها الناس خلفهم عن سلفهم[١].

وبلغ من شغف سكان وادي النطرون تزويج أولادهم في سن مبكرة غالبًا من الثالثة عشرة[٢]، وذكر شابرول قائلًا: «وتتزوج النساء في سن الثانية عشرة، ومن النادر أن تبقى واحدة منهن بلا زواج حتى سن السابعة عشرة، بل يحدث أن يُدَّعى أنهن قد نضجن في سن العاشرة أو الحادية عشرة. ومع ذلك فلعل هذا الأمر أقل انتشارًا، رغم أن أمثلة عديدة في هذا المجال لا تدع مجالًا للشك فيما نقول ،فقد حدث أن تزوجت شابات في سن التاسعة أو العاشرة [٣]، ويرجع ذلك إلى بساطة الحياة وقناعة الناس بالضروري من مطالب الحياة، وتأثرهم بالأمثال مثل «من رضي بقليله عاش» و «خير البر عاجله» و «القناعة كنز لا يفنى»[٤] كما أنه عصمة من الزلل وصيانة للشاب والشابة من الوقوع في الفتنة والإغراء، فضلًا عن استغلال العروس لخدمة حماها وحماتها وخدمة زوجها في المنزل والحقل[٥].

أما عن وصف المراة فلم يعجب فولني بالنساء حيث وصفهن قائلًا: «أجسادهن ضعيفة جلودهن عليها صفرة» ، فلم يرَ فولني في السيدات إلا «أشباحًا جائلة بعباءات فضفاضة، ولولا العيون التي تنفذ من ثقوب البراقع ما فطن المرء إلى أنوثتهن»، ولكن سونينى أنصف المرأة فذكر قائلًا: «إنها على جانب كبير من الجمال سواء المسلمات أو المسيحيات يضعن الكحل في أعينهن ويصبغن رموشهن ويتزين بالحنة»[٦].

---

(١) فوزية دياب: المرجع السابق، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٢) محكمة البحيرة: س ٧٨، م ١٩، تاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٣١٠هـ/ ١٣ يوليو ١٨٩٣م، ص٨.

(٣) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج١، ص ٦٥.

(٤) جون لويس بوركهارت: المرجع السابق، ص ٦٨-٦٩.

(٥) فوزية دياب: المرجع السابق، ص ٢٥١.

(٦) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين، المرجع السابق، ص ٢٨٥.

وكان من الشائع خلال فترة الدراسة أن يتزوج الرجل من ابنة العم أو الخال، وكانت العائلة تقف في وجه ابنها الذي يريد الخروج عن بنات عائلته[١] وعند العربان في حالة زواج البنت من غير ابن عمها فلا بد أولًا من (النهوة) وهي أخذ موافقة ابن عمها على هذا الزواج، ولكن عادة ما يكون الزواج من الأقارب، أو على الأقل بين أبناء القبيلة الواحدة، وإذا حدث أن زوج رجل ابنته من رجل من قبيلة أخرى وجبت على العريس "الحدادة" وهي تقديم هدية لوالد العروس وتكون عبارة عن جمل وعباءة ثمينة من الجوخ، وتخطب البنت من أبيها أو وليها إذا كانت بكرًا ولا يؤخذ رأيها في الزواج، أما إذا كانت ثيبًا فلا بد من أخذ موافقتها قبل إتمام الزواج[٢].

كما تمتعت بعض قرى وادي النطرون في أواخر القرن التاسع عشر بحرية اختيار الزوجة من بين أبناء العائلة، فإذا خطبت فتاة إلى شاب أقيمت في منزلها حفلات غنائية وراقصة يشترك فيها جميع فتيات العائلة وشبابها، عندئذ تقوم الفتاة بالرقص بين تصفيق الحاضرين ودقات الطبول، فإذا قام شاب من عائلتها ورقص معها اعتبر بذلك أنه خطبها[٣] أما العربان فكان ولي الفتاة يعطي خاطبها غصنًا أخضر يعرف بـ "القصله" قائلًا له: "خذ هذه قصلة فلانة بسنة الله ورسوله" فيتناولها الخاطب قائلًا: "قبلتها بسنة الله زوجة لي"[٤].

أما من ناحية المهر فقد حدد قيمته الوضع الاجتماعي، وعادة ما كان الزوج يدفع نقدًا نصف المهر مقدمًا في الحال لوالد الزوجة عند عقد الزواج، أما النصف الآخر فيدفع عند الطلاق أو الوفاة وفي حالة ما إذا طلبت الزوجة الطلاق يسقط حقها في النصف الآخر المؤخر[٥] وكان بعض العربان يقدمون مهر الزواج مقدرًا بالجمال، يتراوح ما بين جملين وخمسة ومؤخر الصداق

---

(١) إدوارد وليم لاين: المرجع السابق، ص ١٦٢.

(٢) إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٢٥٩.

(٣) محمد قنديل البقلي: المرجع السابق، ص ١٦.

(٤) إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٢٥٩.

(٥) محكمة البحيرة: س ٧٤، م ٢٢١، ٢٧ ذي القعدة ١٣٠٨هـ/ ٤ يوليو ١٨٩١م، ص٧٥.

يساوي مقدمه[١] وتشابهت عقود الزواج عند المسلمين مع نظيرتها عن الأقباط عند تسجيلها أمام المحاكم الإسلامية[٢].

أما عن الزفة للعروسة في وادي النطرون كما أشار إليه الرحالة ووردت بالوثائق، فكانت ليلة الجمعة هي المفضلة عند المسلمين، وليلة الأحد عند الأقباط، وتبدأ بليلة الحناء وهي الليلة التي تسبق يوم الزفاف مباشرة، وهي تعد ليلة حاسمة لأنها تكون آخر ليلة تقضيها العروس في منزل أبيها، فتحتفل بها الأسرة وتجعل منها ليلة وداع، وتأتي الماشطة[٣] والقابلة أي الداية[٤] وتعجن الحناء وتقوم النساء بتلوين أيديهن وأرجلهن بالحناء[٥] وفي صبيحة يوم الزفاف، يستكملن عملهن بمساعدة فريق من قريبات العروس، مشغولات معها بعملية "الجلوة" وهي عمل كل الوسائل التي من شأنها إظهار العروس في أبهى منظر[٦]، ووصف بلون النساء اللاتي يطلقن الزغاريد طوال العرس قائلًا: تفتح المرأة فمها إلى أقصى اتساع فتنبعث أصوات غريبة وتحرك لسانها بين أسنانها ثم تسحبه إلى الخلف فتنطلق الأصوات الغريبة"[٧]. أما العريس في يوم الزفاف فيُدعى إلى منزل أحد أصدقائه لتحميته ويتولى الحموم حلاق القرية[٨] ثم يقوم أهالي القرية بزفافه وهم ينشدون له:

---

(١) محمود على سيف: المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(٢) محكمة سيوة: س ١٢٤٢، م٣، ٦ جماد أول ١٣٠٥هـ/ ٢٠ يناير ١٨٨٨م، ص٢.

(٣) الماشطة: هي المرأة المتخصصة في تزيين العروس من جميع النواحي، وخاصة تمشيط شعرها، انظر: فوزي دياب، المرجع السابق، ص ٢٩٤.

(٤) ديوان المعية السنية: دفتر رقم ١٧، وثيقة رقم ٤٣٢، ٢٦ ذي القعدة ١٢٣٩هـ/ ٢٣ أغسطس ١٨٢٤، ص ٣١٢.

(٥) إدوارد وليم لاين: المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٦) فوزية دياب: المرجع السابق، ص ٢٩٧.

(٧) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص٨٦.

(٨) محمد قنديل البقلي: المرجع السابق، ص ٤٠.

يـا عـروسـه يـا أم غـالـي　　انـجـلـي ولا تـبـالـي
انـجـلـي يـا وش بـومـة　　زعـقـه وسـط الـلـيـالـي
لـك مـسـخـة شـعـر يـربـط　　فـوق رأسـك لا مـحـال
تـشـبـهي بـه آم مـجـبـر　　دائره وسـط الـتـلال
يا عريس قم خد عروستك　　واطلع بها فوق العلالي
وافرشوا القبة ونامو　　فوقها في جنح الليالي[1]

حتى يصل إلى منزل العروس، ويعود بها في نفس الموكب المصاحب له، وكان الزوج في العادة لا يخرج من منزل الزوجية إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام، وكان عليه بعد هذه المدة أن يذهب إلى سوق القرية ليأتي لعروسه بشيء مما وجد فيه أو ما تتمناه عليه[2].

وقد أولى العربان حفلات الزواج اهتمامًا كبيرًا، ولا يزالون على اعتبار أن الزواج عندهم من أهم أحداثهم الاجتماعية فيحتفلون بالعرس بدق الكفِّ وفيه يجتمع شباب القبيلة ويقفون على شكل نصف دائرة ويصفقون مع مد أيديهم إلى الأمام وجذبها إلى الخلف بنظام واحد ويرتلون بعض الألفاظ بنغمة واحدة وترقص أمامهم فتاة محجبة لا يظهر منها شيء حتى وجهها وتلبس حزامًا يلف بشكل خاص حول وسطها وتمسك في يدها عصا أو سيفًا، وتسير وهي تحجل متنقلة من طرف نصف الدائرة الأيمن إلى طرفها الأيسر وبالعكس، ويطلق عليها الحجالة[3].

أما الأقباط فيحتفلون بالزواج داخل الكنيسة، لأن الزواج سر من الأسرار المقدسة لديهم، ويقوم أساسًا على فكرة الجسد الواحد[4] وقد قيل: «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق

(١) يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربيني: هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م ص ١٠.
(٢) على مبارك: المرجع السابق، ج٨، ص ٨٢.
(٣) إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٢٦٠.
(٤) شنودة الثالث، البابا: الأسرة الروحية السعيدة، ط٢، الكلية الأكليريكية، القاهرة ١٩٩٩، ص ٢٩.

بامرأته ويكون الاثنان جسدًا واحدًا»[١] فلم يكن لهم بد من أن تجري مراسمه على يدي أحد الكهنة بالكنيسة[٢] وبعدها يمارسون نفس مراسم احتفالات الزفاف عند المسلمين[٣].

ونجد من حالات الزواج بين قرى وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر، ما ذكر من زواج حسنين حمزة صاحب الأطيان من البريجات من جمال النور على صداق قدره ١٢ ألف قرش، ٨ آلاف قرش مقدم، والباقي مؤخر نقدًا[٤] وزواج محمد أبو هاشم الكيال من المحمودية من فرحانة وهبان على صداق قدره ٧٧٠٠ قرش نصفها مقدم، ومثلها مؤخر[٥] وزواج محمد مرعي المزارع من الطرانة من فاطمة حسين على صداق قدره ٩٥٠ قرشًا، نصفها مقدم والباقي مؤخر[٦] وزواج إبراهيم عاشور – لم تذكر وظيفته– من النجيلة من نفيسة دياب على صداق قدره ٢٠٠٠ قرش[٧].

كما وجدت حالات زواج لأولاد العم في الفلاحين والعربان، فتزوج حنفي محمد سلامة المزارع من الطرانة من ابنة العم مبروكة على سلامة[٨] كذلك تزوج محمد عثمان البدوي من معاطي منصور البدوي على صداق قدره ١٠٤٠٠ قرش[٩] وعبد المعاطي إدريس إبراهيم من مريم محمد إبراهيم وكلاهما من عربان أولاد علي بوادي النطرون[١٠].

---

(١) الكتاب المقدس: إنجيل متى، الإصحاح ١٩، آية ٤: ٦.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: البابا شنودة الثالث، شريعة الزوجة الواحدة في المسيحية، ٩، مطبعة الأنبا روبيس، القاهرة ١٩٧٨.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر: محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٢٣٠.

(٤) محكمة البحيرة: س ٨٠، م ٣٠٧، ١٨ ذي القعدة ١٣١٠هـ/ ١٣ يونية ١٨٩٣م، ص ٨١.

(٥) نفسه: م ٢٥٢، ٢٩ شوال ١٣١٠هـ/ ١٣ مايو ١٨٩٣م، ص ٦٦.

(٦) محكمة النجيلة: س ٧٢٣، م ٧٦٩، ٢٠ ربيع أول ١٢٧٦هـ/ ١٧ أكتوبر ١٨٥٩م، ص ١٤١.

(٧) نفسه: س ٧٢٩، م ٤٠٩، ٩ من ذي الحجة ١٢٩٣هـ/ ٢ ديسمبر ١٨٧٦م، ص ١٢٩.

(٨) نفسه: س ٧٢٤، م ٣٤٢، ١٥ شعبان ١٢٨٤هـ/ ١٢ ديسمبر ١٨٦٧م، ص ٨٤.

(٩) محكمة البحيرة: س ٧٤، م ٩٠، ١٣ شعبان ١٣٠٨هـ/ ١٣ مارس ١٨٩١، ص ٣٢.

(١٠) نفسه: س ٤٨، م ٥٥، ٧ صفر ١٢٧٩هـ/ ٤ أغسطس ١٨٦٢م، ص٩.

ووجد من حالات الزواج ما كان يعقد بين قرى وادي النطرون بعضها بالبعض، وما بين قرى ومديريات أخرى كما ورد من زواج خميس مجاهد المزارع من كفر داود من مشرفة يادم من الطرانة[١] وإبراهيم أبو حراز من الإسكندرية من بركة أبو كرم من النجيلة بالبحيرة[٢] ومحمد هدية من خضرة غباشي من المنوفية[٣] ووجدت حالات زواج بين قبائل العربان، كزواج على الشايب من عربان أولاد على من خديجة حسن من عربان الهنادي[٤].

وارتبط أهالي وادي النطرون بزيجات مع جنسيات أخرى[٥]، مثل زواج محمد عمارة من صباح عبد الله السودانية[٦] وزواج محمد فتح الله من سيدة محمد الشامية[٧] وزواج عبد الهادي عبد الجواد الإيراني من معدة الطنطاوي[٨] والجدول التالي يوضح النمط الاجتماعي للزواج بالوادي:

(١) نفسه: س ٣٨، م ١١٠، ٢٠ جماد أول ١٣١١هـ/ ٢٩ نوفمبر ١٨٩٣م، ص٦١.
(٢) محكمة النجيلة: س ٧٣١، م ٣٢، ٢٩ جماد أول ١٢٩٤هـ/ ١١ يونية ١٨٧٧م، ص ٨.
(٣) نفسه: س ٧٢٣، م ١٣٣٠، ٧ ذي الحجة ١٢٧٦هـ/ ٢٦ يونية ١٨٦٠م، ص ١٩٧.
(٤) نفسه: س ٧١٩، م ٢٥٠، ١٥ رجب ١٢٩٣هـ/ ١٠ أغسطس ١٨٧٦م، ص ٨٠.
(٥) محكمة البحيرة: س ٤٨، م ٨٣٣، ٢٧ صفر ١٢٨٣هـ/ ١١ يوليو ١٨٦٦م، ص ١٦١.
(٦) نفسه: ٧٤، م ٩٠، ١٣ شعبان ١٣٠٨هـ/ ١٣ مارس ١٨٩١م، ص٣٢.
(٧) نفسه: ٨٨، م ٤٠، ٧ شعبان ١٣١٢هـ/ ٢ فبراير ١٨٩٥، ص٢٢.
(٨) محكمة النجيلة: س ٧٢٩، م ٤١٠، بتارخ ٩ ذي الحجة ١٢٩٣ ١٢٩٣هـ/ ٢٥ ديسمبر.

جدول (٢/ ٥)

النمط الاجتماعي للزواج بوادي النطرون [١]

الزوج	موطنه	مهنته	الزوجة	موطنه	جملة الصداق
حسنين حمزة	البريجات	صاحب أطيان	جمال النور	جركسة	١٢ ألف قرش
على حمودة	الأخماس	مزارع	مبروكة عبد الله	الأخماس	٣٠ قرشًا
محمد أبو هاشم	المحمودية	كيال	فرحانة وهبان	أبو نشابة	٧٧٠ قرشًا
خميس المجاهد	كفر داود	مزارع	مشرفة يادم	الطرانة	-
محمد فتح الله	المحمودية	نقاش أختام	سيدة محمد سعد	بلاد الشام	٣ جنيهات ذهب أحمر
محمد العشري	السودان	مزارع	زليخة محمد	كوم حمادة	-
موسى سعد	عزبة الطرانة	بمصلحة الأطرون	منة جرجس	عزبة الطرانة	-
على الشايب من عربان أولاد علي	البريجات	-	خديجة حسن من عربان الهنادي	البريجات	٩٥٠ قرشًا

من خلال الجدول السابق نلاحظ تبايُن الصداق، فنجد صداقًا مرتفعًا وصل إلى ١٢ ألف قرش، وصداقًا ثلاثين قرشًا، كما وجد زيجات بين أهالي وادي النطرون من بعضهم البعض وبينهم وبين أهالي أجناس أخرى مختلفة، واختلافات في نوع المهن التي يمارسها الزوج.

(١)المصدر: سجلات محكمة البحيرة أرقام ٤٨، ٧٠، ٧٤، ٨٠، ٨٢، وسجلات محكمة النجيلة أرقام ٧٢٩، ٧٢٨، ٧٣١، بتواريخ تبدأ من ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م، وتنتهي في ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م.

وشهدت سجلات المحاكم الشرعية العديد من عقود الطلاق أمام القاضي وفقًا للشريعة الإسلامية التي تبيح للزوج أن يطلق زوجته، وتبيح للزوجة طلب الطلاق من زوجها وللزوج الحق – ما دامت العصمة في يده– في إجابتها إلى طلبها أو الرفض. ويظهر في ممارسة بعض أهالي وادي النطرون للطلاق خلال القرن التاسع عشر، مدى الحفاظ على حقوق المرأة الاجتماعية، فمما وقع أن طلق محمد أبو سيف ملاحظ دخولية البحيرة زوجته مقبلة إبراهيم، بعد إقرارها بأنها حصلت على جميع مقدم صداقها ومؤخره الشاهد به كتاب الزوجية[١] وطلق عبد النبي الزملوط من الطرانة زوجته بهانة حجاج الفار، بعد أن سدد لها مبلغ مائتي قرش، والتزم بدفع نفقة كل شهر أربعين قرشًا[٢] وطلق عشماوي نصار زوجته مبروكة على عبد الله وكلاهما من البريجات، بعد أن قام بسداد باقي صداقها ٦٠٠ قرش[٣].

وفي حالة مخالفة الزوج لشروط الزواج يصبح من حق الزوجة أن تطلب الطلاق، فإذا رفض كان من حقها أن تبرئه من مؤخر الصداق وتخلع نفسها، فقد طلبت فاطمة سرحان من زوجها حسن مراد أن يطلقها من عصمته على باقي صداقها وقدره ٣٠٠ قرش وأجاب لها ذلك[٤]، كما طلبت سيدة محمد سعد من زوجها محمد فتح الله خلعها مقابل ثلاثة جنيهاتٍ ذهبًا، واستجاب الزوج لرغبتها[٥]. ومن هنا يمكن القول بأن أحقية المرأة في خلع نفسها من عصمة زوجها تدل على مدى حرص أهالي وادي النطرون على تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية التي أعطت المرأة قسطًا وافرًا من الحرية والاحترام.

مكانة المرأة في الأسرة في وادي النطرون:

تقيم الطبقة والثروة بين نساء مصر اختلافات وفروقا أكبر بكثير من تلك التي تحدث عند شعوب الغرب ،لكن هذه الفروق لا تتضح في مجال التربية التي يتلقينها في طفولتهن – وهي تكاد تكون معدومة بالنسبة لجنسهن كله – بقدر ما تتضح في مجال العادات التي تنتشر في

(١) محكمة البحيرة: س ٧٠، م ١٥٩، غاية جماد الأول ١٣٠٥هـ/ ١٢ فبراير ١٨٨٨م، ص ٦٦.
(٢) محكمة النجيلة: س ٧٢٨، م ١٧٠، ٢٥ ذي القعدة ١٢٨٩هـ/ ٢٤ يناير ١٨٧٣م، ص ٥٧.
(٣) نفسه: س ٧٢٤، م ٣٤٢، ١٥ شعبان ١٢٨٤هـ/ ١٢ ديسمبر ١٨٦٧م، ص ٨٤.
(٤) نفسه: س ٧٢٧، م ٢٦٩، ٤ صفر ١٢٨٨هـ/ ٢٥ إبريل ١٨٧١م، ص ٧٠.
(٥) محكمة البحيرة: س ١٨، م ٤٠، ٧ شعبان ١٣١٢هـ/ ٢ فبراير ١٨٩٥

أوساطهن كنساء، وفيما تحاط به السيدات من علية القوم من احتفال وامتياز، ومن هذه الناحية يمكن لنا اقول بأنه لا توجد في مصر إلا طبقتان من السيدات:

أولا- طبقة ترفل في الثراء، ويؤدى الغنى إلى رخاوة نسائها؛فيقضين حياتهن بأكملها داخل مباهج ومسرات الحريم.

ثانيًا- طبقة قدرت على نسائها حياة نشيطة مليئة بالعمل.

ولكي يتضح لك عزيزي القارئ الفرق، فما عليك إلا أن تنظر إلى واحدة من زوجات البكوات، وأن تدرس أذواقها وسلوكها ومباهجها وملذاتها واهتمامًاتها اليومية، فهذا كفيل بأن يقدم لك فكرة كاملة عن كل السيدات الثريات. ثم عليك بعد ذلك أن تنفذ إلى ما تحت سقف واحد من الحرفيين، أو إلى داخل كوخ أحد الفلاحين، وسوف ترى أن الظروف المتشابهة التي تحياها كل هؤلاء النسوة هي التي تحدد لهن ملابسهن.. وهكذا يمكن أن ترى كل مباهج الرخاوة وترفها في جانب، وفي جانب آخر سوف ترى كل خشونة العمل ومقتضياته[1].

على أية حال، لم يفت الرحالة الزائرين وصفُهم للمرأة في مصر، حيث أسهب شايرول في وصفه وذكر قائلًا: «ذلك الذوق الفطرى عند كل النساء الذي يبدو وكأنه يعمل على التقريب بينهن في مختلف ظروفهن، ذلك أن هذا الذوق يتعلق بالمرأة كامرأة بعيدًا عن الطبقة التي تنتمى إليها، ويمكن القول بأن هذه هي نقطة الالتقاء الوحيدة التي تربط بين النساء على اختلاف طبقاتهن، ونعني بذلك حب الأنق والتزين بالحلي، فكثير من السيدات في مصر يلبسن من تلك الحلي ما يفوق كل ثروة أزواجهن، وليس من النادر أن نرى هناك زوجة لحرفي بسيط تتزين بجواهر ثمينة، ولو أتيح لواحدة من ثريات النساء في أوروبا أن ترتديها لأدركتها كل أمارات الزهو والخيلاء، ومع ذلك فقد تكون زوجة هذا الحرفي ممن يعانين في الحصول على قوت يومهنَّ، وهذا الكلف من ناحية السيدات المصريات بهذا النوع من الزينة يرتبط بطريقة إحساس هؤلاء السيدات بكرامتهن حتى أن أبسط تاجر لا بد أن يوفره لزوجته إرضاء لها،

(١) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج١، ص ٦١.

ويؤدي ذلك في النهاية وبدرجة لم تكن متوقعة إلى تضييق ممارسة تعدد الزوجات،لذا يكتفي المسلم المتواضع الثراء بزوجة واحدة أو اثنتين، ولن يكون بمقدروه أن يزيد عن ذلك وإلا سوف يصعب عليه أن يساوي بينهما. وهكذا، فقد وضع خيلاء النساء وغرورهن حدودًا لإفراط الرجال وشهواتهم.»[1]، أما الأقباط فالرجل لا يتزوج إلا زوجة واحدة، طبقًا لتعاليم الكتاب المقدس.

ولمكانة المرأة في مصر تلقب بست هانم أو هانم أو باسم ابنها ولا يمكن أن يناديها أحد باسمها وهي حريصة على تربية أولادها وتستمر في إرضاعهم لمدة عامين، ولو عجزت عن إرضاعهم تستدعي مرضعة، وإذا لم تنجب فإنها تهدي زوجها جارية، فإذا ولدت له ولدًا فإن التي تتولى تنشئته هي الزوجة الأولى. وقد أعجب ميليه بغيرة الرجل الشرقي على نسائه فكتب قائلًا: «يراعي الشرقيون التقاليد أكثر منا ويعرفون الفضيلة والطهر أكثر من الغرب»، وأكد قائلًا: «إن المرأة لا تخرج إلا للضرورة أو إلى الحمام أو زيارة صديقاتها» فكتب قائلًا: «إننا نادرًا ما نقابل النساء في الطرقات». وقد ذكر سونيني قائلًا: «إن النساء في الشرق مظلومات، وهن أسرى الرجال، ولا توجد عاطفة ولا علاقة قوية بين الأزواج»، كذلك ذكر مليليه قائلًا: «إن النساء في مصر مجبورات على الزواج ليس لديهن فرصة اختيار الزوج»، ولكنه أعجب بطهارة الفتاة ومحافظتها على سمعتها وشرفها»[2].

على أية حال، في الواقع أن الحرية التي نعمت بها المرأة في وادي النطرون خلال فترة الدراسة، لم تقتصر على علاقتها بالرجل، وإنما امتدت لتشمل جوانب متعددة في حياة المرأة، مما يدل على أنها لم تكن حبيسة المنزل، ولكنها خرجت للحياة العامة في ذات القرن، فإلى جانب رعاية زوجها وأبنائها حتى بعد وفاة زوجها كانت هي الوصية على أبنائها، لدرجة جعلتها ترفض الزواج للحفاظ على تماسك الأسرة، ومن حالات الوصاية حالة وصاية شلباية غنيم من كفر

(١) نفسه: ص ٦٥.

(٢) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين، المرجع السابق، ص ٢٨٧-٢٨٨.

داود على أودلاها بعد وفاة زوجها حسن جعفر[١] وأيضًا بدوية السقا بعد وفاة زوجها حسن كتكوت[٢] كما وجدنا صفية الليبي من أبي نشابة وكيلة عن أخواتها للحصول على إرثهم[٣].

كما ساهمت المرأة في وادي النطرون بدور بارز في النشاط الاقتصادي، فقد وجدنا زهرة أحمد تعمل راعية وتاجرة أغنام[٤] ومحبوبة محمد تعمل بالفلاحة وتاجرة للغلال[٥] وكذلك نادية الدلالة التي اشتهرت ببيع الأقمشة القطنية والحريرية والصابون بين قرى الوادي[٦].

وكان للمرأة في وادي النطرون دور مهم في أعمال الخير، فقد أوقفت إنجي هانم زوجة محمد سعيد والي مصر خمسين فدانًا في الوادي على مساجد وفقراء المسلمين[٧] وأوقفت قبطية منزلًا بدرب الجنينية بالأزبكية بالقاهرة لصالح رهبان دير السريان[٨] وعملت وهيبة السيد عبد المنعم ناظرة على وقف مقام الشيخ خطاب بعد وفاة والدها وعمها[٩].

كما احتلت المرأة البدوية مكانة كبيرة في وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر، فقد شاركت في العمل في غزل الصوف وصنع الخيام وساعدت رجلها في رعي الإبل، بجانب رعاية أبنائها، كما أن زوجات الشيوخ كنَّ يحكمن القبيلة بعد موت أزواجهن[١٠].

---

(١) محكمة البحيرة: س ٧٠، م ٤٥، ٢٨ جماد الثاني ١٣٠٥هـ/ ٢١ مارس ١٨٨٨م، ص ٢٢.
(٢) نفسه: س ٨١، م ١٥٢، ٢٥ ربيع أول ١٣١١هـ/ ١٥ أكتوبر ١٨٩٣م، ص ٨٦-٨٧.
(٣) مضطبة كوم حمادة: س ٣١٨، م ٥٥، ١٣ محرم ١٣٢١هـ/ ١١ إبريل ١٩٠٣م، ص١٧.
(٤) مجلس الأحكام: س ٧/ ٦/ ٤٤، صادر الأقاليم البحرية إلى البحيرة، مضبطة ١١، ٢٢ رجب ١٢٩٠هـ/ ١٥ سبتمبر ١٨٧٣م، ص ١٥.
(٥) محكمة البحيرة: س ٨٢، م ١١٢، ٢٠ جمادى الأولى ١٣١١هـ/ ٦ ديسمبر ١٨٩٣م، ص ٦٢.
(٦) مجلس الأحكام: س ٧/ ٦/ ٣٨، صادر الأقاليم البحرية إلى البحيرة، مضبطة رقم ٢١١، ١٧ ربيع أول ١٢٨٦هـ/ ٢٧ يونيو ١٨٦٩م، ص ٨.
(٧) محكمة البحيرة: س ١٥٣، م ١٦٩، ٢٠ جماد أول ١٢٩٥هـ/ ٢٠ فبراير ١٨٧٧م، ص ٧٨-٧٩.
(٨) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ٢١٠٨، ٨ صفر ١٢٢٥هـ/ ١٥ مارس ١٨١٠م.
(٩) محكمة البحيرة: س ٢٣، م ١٧٣، ٣ ربيع آخر ١٢١٨هـ/ ٢٣ يوليو ١٨٠٣م، ص ٩٠.
(١٠) إيمان محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٢٥٨.

على أية حال، فقد حظيت المرأة، بقدر كبير من الاعتزاز والاحترام من جانب أزاوجهن أو أبنائهن، خلال القرن التاسع عشر.

الجريمة:

هي ذلك السلوك الضار اجتماعيًّا، وغير المقبول من المجتمع، ومن ثم يتحتم مواجهتها وإصلاح كافة ما ينجم عنها من آثار ضارة، والعمل على توقي حدوثها في المستقبل أو الحد من معدلات ارتكابها[١].

وقد أكد كل من روفينوس وبلاديوس وجيروم وغيرهم على أن القرن الرابع ومستهل القرن الخامس الميلادي العصر الذهبي لوادي النطرون وأديرته، حيث ساد الاستقرار والأمن – إلى حدٍّ ما – ولكن تلك النهضة لم تستمر لإغارة البرابرة وقيامهم بأعمال السلب والنهب فحل الخراب والدمار فهجره غالبية من السكان والرهبان[٢]. ومع بداية العصر العثماني رجع الهدوء للوادي، وعلى الرغم من ذلك تعرض بعض الرحالة الزائرين لأعمال السلب والنهب[٣]. فذكر الدومنيكاني جوهان ميشيل فانسلب أنه في أثناء زيارته لوادي النطرون عام ١٦٧٢م؛ تعرض لحادثة اعتداء نجا بأعجوبة من القتل على العربان. كما وصف الأب كلود سيكار عام ١٧١٢م، اعتداءات العربان على الأديرة القبطية بطريقة من الهمجية والعنف في مشهد غير إنساني. بينما ذكر الرحالة سونيني عام ١٧٧٨م أنه تعرض لحادث سرقة على يد عرب الصحراء في أثناء زيارته برية شيهيت[٤].

على أية حال، قد شهد وادي النطرون خلال فترة الدراسة العديد من حوادث السلب والنهب والسطو المسلح وسرقة الأموال، وكانت هنالك عصابات تقوم بارتكاب هذه

---

(١) أحمد ضياء الدين محمد خليل: الظاهرة الإجرامية بين الفهم والتحليل، أكاديمية الشرطة، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٩-١٠.

(٢) رءوف حبيب: الرهبنة الديرية في مصر، مكتبة المحبة، القاهرة ١٩٩٩، ص ٧٩.

(٣) مخطوطات دير السريان: داود مرقس حناوي، المرجع السابق، ص ٥٨٩-٥٩٠؛ عمر طوسون، المرجع السابق، ص ١٦٧-١٦٨.

(٤) هيوج.ج. إيفلين هوايت: المرجع السابق، ص١٥٨-١٦٨.

الحوادث لدرجة تهدد الأمن بين السكان، وأصبحت ظاهرة معروفة لدى الحكومة إلى درجة أنها أصدرت لها لائحة (أوائل ربيع الثاني ١٢٧١هـ/ ٢٢ ديسمبر ١٨٥٤م) إلى حكام الأقاليم تحثهم على تشديد الرقابة الأمنية، وتتبع اللصوص والجناة والمشتبه فيهم لحماية السكان من شرهم[١].

وقد تعددت حوادث السرقة في وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر، على سبيل المثال تعرضت شون غلال الحكومة بنواحي الخطاطبة والبريجات للسطو عليها من قبل عصابة وتم ضبط بعض أفرادها[٢] كما تعرضت مصلحة النطرون بالطرانة لعصابة من الفيوم، استولت على معدات ومواشٍ، ولم تتمكن السلطات من القبض على أفرادها[٣].

وتعرضت بعض قرى وادي النطرون لحوادث سطو مسلح من جانب بعض العصابات، فقد قامت عصابة مسلحة من الوادي بالتعدي على ناحية الأخماس وسرقة بعض منازلها وسرقة مواشيها وتم ضبط الجناة[٤].

ولم يسلم بعض الأفراد من التجار من حالات السطو والاعتداء عليهم، فعلى سبيل المثال تعرضت عصابة من الطرانة للخواجة أنطوان يني التاجر، واستولت على كميات الدخان التي بحوزته، وأحدثت به إصابات، وتمكن مشايخ الطرانة من ضبط اللصوص، وإرسالهم لضبطية النجيلة، ومن ثم إرسالهم إلى الليمان[٥].

على أية حال، تحفل الوثائق بالعديد من أعمال السرقة والسطو على مستوى الأفراد، فعلى سبيل المثال ادعى سيد أحمد الشهير بالفار من الطرانة على محمد إبراهيم سرقة نعجة حمراء اللون

---

(١) مجلس الأحكام: دفتر مجموع أمور وإجراءات، س ٧/ ٣٣/ ١، وثيقة بدون رقم، لائحة تدون بيان خدمة مديري الأقاليم، أوائل ربيع الثاني ١٢٧١هـ/ ٢٢ ديسمبر ١٨٥٤م، ص ٤٥.

(٢) مديرية البحيرة: س ٦٤، صادر الدواوين لديوان كتخداي، وثيقة رقم ٧٤، غرة ذي القعدة ١٢٦٨هـ/ ١٧ أغسطس ١٨٥٢م، ص ٤٣٣.

(٣) نفسه: س١، صادر إلى سايرة، وثيقة ١٠١، غرة جماد الأول ١٢٦١هـ/ ٨ مايو ١٨٤٥م، ص ٦٣٨.

(٤) محافظ مديرية البحيرة: محفظة ١، وثيقة ١٢٩، غرة جماد الأول ١٢٦٨هـ/ ٢٥ ديسمبر ١٨٥١م.

(٥) محكمة النجيلة: س ٧٣٤، م ٧٤، ١٥ رجب ١٢٩٥هـ/ ١٥ يوليو ١٨٧٨م، ص ١٧.

وأشياء أخرى من منزله[١] وادعى أحد أهالي البريجات على محمد عطية سرقة ذهب ونقود وأشياء أخرى من منزله[٢].

وكانت حوادث السرقة في قرى وادي النطرون ممّا يلحق بالمتهمين العار، وتحفل الوثائق بالعديد من الجرائم بين الفلاحين، وأصبحت بعض القرى مليئة باللصوص الذين يهددون المنازل، وكانوا معروفين للأهالي، وكثرة ترددهم على الأسواق في القرى المجاورة[٣] واشتهر من بين هؤلاء رحيم يادم من عربان الجوابيص[٤] ومصطفى العزايلي، وأحمد زهران وعلي البغدادي من الطرانة[٥] ومحمد صابرة من الأخماس[٦] وآمنة إبراهيم من النجيلة[٧].

وشهد الوادي العديد من حوادث القتل كتعرض بعض أهالي كفر داود على يد جماعة من الخطاطبة للقتل[٨] كما قتل الخواجة قسطندي التاجر على أيدي أحد اللصوص بالوادي[٩] وقتل أحد خفراء مصلحة النطرون على يد على موسى، وتم تنفيذ القصاص فيه[١٠].

---

(١) محكمة البحيرة: س ٣، م ٢٢٦، ١٥ ذي الحجة ١٢٢٢هـ/ ١٣ فبراير ١٨٠٨م، ص١٥١.

(٢) معية سنية تركي: محفظة ١٠٦، دفتر ٥٣٢، من المعية إلى مديرية البحيرة، وثيقة ٢، ٢١ ربيع أول ١٢٧٩هـ/ ١٧ سبتمبر ١٨٦٧م، ص ٢.

(٣) نفسه: محفظة ٩٠، دفتر ٨٠، مخلصات دفاتر، وثيقة رقم ٦٩، ٨ رجب ١٢٥٢هـ/ ١٩ أكتوبر ١٨٣٩م.

(٤) محكمة النجيلة: س ٧٣٤، م ٧٠، ٥ رجب ١٢٩٥هـ/ ٥ يوليو ١٨٧١، ص ١٦.

(٥) نفسه: م ٧٤، ١٥ رجب ١٢٩٥هـ/ ١٥ يوليو ١٨٧٨م، ص ١٧.

(٦) مديرية البحيرة: س ٩٨٠، وارد من قسم النجيلة، ويقة ١٠٠٣، ٧ محرم ١٢٧٤هـ/ ٢٨ أغسطس ١٨٥٧م، ص ٢٤.

(٧) نفسه: س ٤٦٢، صادر الفروع لقسم النجيلة، وثيقة ٢٣٤، ٢١ شعبان ١٢٨٧هـ/ ١٦ نوفمبر ١٨٧٠م، ص ٣٢.

(٨) مديرية البحيرة: س ١، صادر إلى عمدة كفر داود، وثيقة ٩٢٠، ١٢ شوال ١٢٦٥هـ/ ٣١ أغسطس ١٨٤٩م، ص ٦٧٠.

(٩) معية سنية تركي: محفظة ١٠٦، دفتر ٥٣١، من المعية إلى مديرية البحيرة، وثيقة ٢٤، ١٢ محرم ١٢٨٠هـ/ ٢٩ يونيو ١٨٦٣م.

(١٠) إدارة المحيات: محفظة ٤، تفتيش بحري، وثيقة ٣٣٥، ١٠ ذي القعدة ١٢٧١هـ/ ٢٥ يوليو ١٨٥٥م.

وأحيانًا ما كانت تؤدي المشاجرات إلى حدوث جرائم القتل، فعلى سبيل المثال قتل على حسين عمدة الخطاطبة بطبنجة، في أثناء المشاجرة التي حدثت بين بعض مشايخ الخطاطبة والأخماس وأبي نشابة وبني سلامة، وتم ضبط المتهمين وإحالتهم إلى الليمان[1].

وعلى الرغم من تمسك مجتمع وادي النطرون بالفضيلة والقيم الدينية، فإن الوثائق تسجل حوادث كثيرة حول ارتكاب جرائم الدعارة والاغتصاب، فعلى سبيل المثال اعتدى مجموعة من اللصوص على راعية من عربان الوادي، فقاموا باغتصابها، واستولوا على جمالها وأغنامها[2].

وهكذا نرى أن هذه الحوادث، بالرغم من تعددها كانت الإدارة المركزية قادرة على التصدي لها والقضاء عليها بردع مرتكبيها، للحد منها عن طريق تنفيذ اللوائح والقوانين.

المؤسسات الدينية:

اهتم الرحالة بوصف المساجد وذكر تينو أن المماليك كانوا أحرص من الأتراك على بناء المساجد، فكل مملوك يتولى الحكم لا بد وأن يعمل على بناء المساجد يحمل اسمه، وذكر بيلون أن المساجد في مصر تتكون من عدة طبقات يحرص المصريون على تجميلها ونظافتها، ويعتبر جامع الغوري والسلطان حسن من أكبر وأشهر مساجد مصر. وتعجب تيفيه من عدم وجود أجراس في المساجد للتنبيه على الصلاة وأكد نفوره من الآن «يصعد القسيس المسلم الذي يلقب إمامًا إلى أعلى المسجد ويطلق صرخات حادة لكي يتجمع المصلون في المسجد»، وهنا خلط تيفيه بين الإسلام والمسيحية، وقد امتازت ملاحظاته بالتعصب الشديد ضد الديانة الإسلامية فقد أطلق على المساجد في مصر «معابد الشياطين»، لكن رغم ملاحظاته القاسية والحادة فإنه قد أبدى أعجابه بجمال المساجد وعماراتها[3].

---

(١) مجلس الأحكام: س٧/ ٦/ ٣٣، صادر الأقاليم البحرية إلى مديرية، مضبطة رقم ٢٧، ٩ رمضان ١٢٨٣هـ/ ١٥ يناير ١٨٦٧م، ص ٩٣.

(٢) معية سنية تركي: دفتر ٦٩، من الجناب العالي إلى حسن أفندي مدير البحيرة، وثيقة ١٧٨، ٧ رجب ١٢٥١هـ/ ٢٩ أكتوبر ١٨٣٥م، ص ٩٤.

(٣) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص ٩٥.

على أية حال، وُجدت المؤسسات الدينية المعدة للعبادة في قرى وادي النطرون خلال فترة الدراسة، وتمثلت عند المسلمين في الجوامع والمساجد، فكان من دواعي بناء الجامع الكبير للمسلمين، أن تقام فيه خطبة الجمعة، ويفتح أبوابه من صلاة الفجر حتى بعد صلاة العشاء[١]، ولم يكن وجوده في قرية يمنع من وجود المسجد الذي لا تقام فيه صلاة الجمعة، لذلك فقد كان الجامع هو الأساس، ومع ذلك وجدنا بعد النواحي التي لا يوجد بها سوى مسجد وإن كان ذلك قد اقتصر على القرى غير المأهولة بعدد كبير من الأهالي أو التي التي نشأت نتيجة للزحف العمراني مثل الهوكرية وبنى سلامة وزقيق[٢].

ومن بين الجوامع التي اشتهرت بوادي النطرون والمناطق المجاورة له، جامع المحمودية، الذي يرجع تاريخ إنشائه إلى السلطان الناصر بن قلاوون[٣] وقد تم ترميمه في سنة (١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م)[٤] كذلك جامع النجيلة والطرانة والبريجات وكفر داود[٥] ومن المساجد مسجد الأخماس وأبو نشابة والخطاطبة[٦]، كما وجدت المقامات مثل مقام الشيخ خطاب بالبريجات، وكذلك وجدت الزوايا ببعض قرى الوادي[٧].

أما المؤسسات الدينية عند الأقباط فتمثلت في الأديرة والكنائس[٨]، نظرًا لأن الوادي كان مركزًا للرهبنة المسيحية، وكان الدير يضم مجموعة من الكنائس بداخله، بالإضافة إلى قلالي

---

(١) محافظ الأبحاث: محفظة ١٢٥، دفتر رقم ١٩٥٨، قرارات المجلس الخصوصي، لائحة ديوان الأوقاف، رقم ١٨٢، ١٣ شوال ١٢٥٠هـ/ ١٢ مارس ١٨٣٥م، ص١٥٦.

(٢) شركات وجمعيات: محفظة ١٧٠، ا/ أ، مجلس الوزراء، ٩ إبريل ١٨٩٩م.

(٣) على مبارك: المرجع السابق، ج ١٧، ص ٥.

(٤) معية سنية تركي: دفتر ١٨٩٤، أوامر من القلعة السعدية إلى ناظر المحمودية والحوض، أمر رقم ١٨، ٤ جماد الآخر ١٢٧٧هـ/ ١٨ ديسمبر ١٨٦٠م، ص ٥٤.

(٥) مديرية البحيرة: س ٨٩٠، وارد دواوين من الإسكندرية، وثيقة ٣١١، غرة جماد الأول ١٢٧١هـ/ ٢٠ يناير ١٨٥٥م، ص ١٨٩؛ محمد رمزي، المرجع السابق، ق٢، ج٢، ص٣٣١-٣٣٢.

(٦) معية سنية عربي: س ٢٥، قيد الأوامر الصادرة إلى الأقاليم، أمر رقم ١١، ١٠ محرم ١٢٥٢هـ/ ٢٧ إبريل ١٨٣٦م، ص ٩.

(٧) محكمة البحيرة: س٢٧، م ٣٤٢، غرة رمضان ١٢١٥هـ/ ١٦يناير ١٨٠١م، ص ١٦٠.

(٨)سوف يأتى الحديث بإسهاب في الفصل السادس عن أديرة وادي النطرون.

الرهبان[1] أما القرى فقد انتشرت بها الكنائس، وغالبًا ما كانت في كل ناحية من نواحي الوادي كنيسة، واشتهرت من بينها كنيسة السيدة العذراء بالطرانة وعزبتها، وكنيسة الأنبا بشوي بكفر داود، وكنيسة السيدة العذراء بالمحمودية، وكنيسة مار جرجس بالخطاطبة[2].

وكان الانفاق على هذه المؤسسات الدينية يتم من الأوقاف التي أوقفها الأهالي من المسلمين[3] والأقباط من أراضٍ وعقارات عن طريق الاستفادة من دخولها بإيجاد جهاز لأعمال الصيانة والترميم للحفاظ على هذه المؤسسات، ودفع أجور العاملين والقائمين عليها، لاستمرار نشاطهم الديني والخيري[4]

- التعليم والثقافة:

لقد أفاض شابرول في وصف مرحلة التعليم الأولى في مصر، حيث كان الطفل يبدأ حسب ما ذكر قائلًا: «إن الأطباء يدعون أن ملكات الطفل العقلية تتشكل منذ سن الرابعة أو الخامسة، فكان الأب لا يهمه إلا تعليم طفله، حيث يحرص على أن يبدأ طفله تعليمه في هذا السن، فيجعله يتردد على المدارس حتى يتعود على الأقل على شكل الحروف، ولكي يدركها دون مشقة كبيرة. ويلتزم الآباء بأن يعطوا لأبنائهم نوع التعليم الذي يتناسب مع درجة ثرائهم، أو يلزمونهم حسب الحال بتعلم حرفة وتعلم القراءة والكتابة يسبق كل شيء، لكن ذلك ليس إلزاميًّا ولا حتى عامًا، حيث إن العدد الأكبر من الفلاحين وأبناء الطبقات الشعبية لا يعرفون القراءة والكتابة.. وكان من النادر أن نرى مصريًّا يتحمل بنفسه مشقة تعليم طفله؛ لذا فهم يرسلون أبناءهم إلى المدارس، وكان الأغنياء يرسلون أطفالهم بصحبة أحد الخدم، أما الفقراء فيصحبونهم، أو يتولى مساعد المدرس تجميع هؤلاء الأطفال ليصحبهم جميعًا، وتقوم الأمهات

---

(١) مديرية البحيرة: س ٩٨٥، وارد البحيرة إلى قسم النجيلة، وثيقة ١٠١، ٨ صفر ١٢٧٣هـ/ ٨ أكتوبر ١٨٥٦م، ص ٥٤.

(٢) معية سنية عربي: دفتر ١٨٨٤، أوامر، أمر كريم إلى مديرية البحيرة، وثيقة ٨٧، ٨ شوال ١٢٧٢هـ/ ١٢يونيو ١٨٥٦م، ص ١٥٩.

(٣) محكمة البحيرة: س ١٦١، م ١٤، غرة رجب ١٢٩٧هـ/ ٢مايو ١٨٨٠م، ص ٣١- ٣٣.

(٤) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ١٢٨٨، ١٥ ذي القعدة ١٢٩١هـ/ ٢٤ ديسمبر ١٨٧٤م.

بإرسال وجبات إلى أطفالهن الدراسين، ويقسم هؤلاء الأطفال طعامهم مع زملائهم المعوزين. من هنا تأتي المساواة المطلقة التي تسود بينهم، فهم لا يعرفون ذلك التمايز الذي يعود إلى الأصل والمنشأ، بل إن الثروة نفسها ليس لها في هذا الصدد إلا ميزة طفيفة»[1].

ويذكر شابرول أن الكبار لا يرسلون أبناءهم إلى المدارس العامة، أما الفتيات فلا يتعلمن حتى مجرد القراءة، وإذا حدث إن كان بعضهن يمتلكن هذه القدرة فلا بد أن هذا بالغ الندرة، ولا بد أنهن قد تعلمنه في معقل الحريم، ويكون مدرسوهن في هذه الحالة رجالًا في سن متقدمة ومحرومين من نعمة البصر، ولا يستطيع مثل هؤلاء المدرسين أن يعلموهن أكثر من حفظ آيات من القرآن. وعند هذا الحد تقريبًا توقف التربية الأخلاقية للنساء في مصر. وليس ثمة ما هو أكثر ضجيجًا من مدرسة عامة في مصر حيث يتعلم الأطفال الحروف الهجائية والكلمات، وفي ذات اللحظة يتدربون على نطقها، وهم عادة لا يتعلمون إلا القراءة والكتابة. وكانت المدارس الأولية لا تدين بوجودها إلا لأعمال البر، وهذه المدارس كبيرة العدد ومنتشرة بمدن مصر المختلفة، وكان رسوم الإلتحاق بها ضئيلة، وكان بعض الآباء يرسلون أبناءهم إلى إمام المسجد[2].

وكان للمسيحيين أيضًا مدارسهم وهي تعتمد على الإعانات والعطايا الخيرية، ويعيش المدرسون من الأتعاب المتواضعة التي يحصلونها من تلاميذهم، وما إن يبدأ الأطفال في معرفة القراءة يتم تحفظيهم مزامير داود والألحان الكنسية بالإضافة إلى تعلم العمليات الحسابية وخاصة تلك المرتبطة بمساحة الأرض وقياسها، وكذلك حسابات التجارة[3]. وأكد شابرول على ذلك قائلًا: «ويرسل الأقباط أولادهم إلى مدارس صغيرة، حيث يتعلمون القراءة والكتابة إلى جانب المبادئ الأولى للدين، ويتمتع بهذه الميزة كل الأطفال الذكور بلا تمييز، لكن الفتيات لا يستطعن الذهاب إلى المدرسة إلا بموافقة أمهاتهن اللاتي يعترضن على ذلك، وعلى العكس

(١) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج١، ص ٧٢-٧٣.

(٢)نفسه: ص ٧٥.

(٣) سليمان نسيم: الأقباط والتعليم،في مصر الحديثة،مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٩٨٣م، ص ٤٥.

من ذلك في الصعيد، حيث يذهبن إلى المدارس هناك مثل الأولاد، ولا ينقطعن عن الذهاب إلى المدرسة حتى في سن الثامنة أو التاسعة، وهي السن التي يبدأن فيه في التشكل ولا يعدن أطفالًا»[١].

وكانت إدارة المدرسة من حق نجل مؤسسها أو أحد ورثته، وبإمكان هذا الوريث أن يبيعها، أو أن يتنازل عنها لصالح آخر. ومع ذلك فينبغي أن يكون المدرس الموكل إليه أمر التدريس قادرًا على القيام بمهام وظيفته وأن يكون حافظًا للقرآن، وإذا ما رأى القاضي أنه أقل كفاءة مما يقتضيه العمل فإنه يستطيع أن يرغم القائم على أمر إدارة المدرسة أن يختار مدرسا أخر أكفأ، ولكن مهنة التدريس لا تحظى بالعناية الكافية، ومكانتها بالغة الضعف، وإذا ما كان المدرس كفؤًا لحد أمكنه أن يجذب عددًا كبيرًا من التلاميذ فله عندئذ أن يأمل في بعض النفع، وإلا فعليه أن يعيش الذكر، وفي حال تقرب من العوز، وليس له أن ينتظر نفعًا. وللقاضي حق التفتيش على المدارس الابتدائية، وعندما يتبين هذا الموظف الكبير أن المبالغ المخصصة للعناية بهذه المنشآت وتلاميذها قد صرفت في غير أغراضها ،فإن له الحق في أن يرغم القائمين على إدارتها على الامتثال لرغبة مؤسسها[٢]. ولا يفوتنا التنويه إلى أن التعليم الأساسي في مصر حتي أواخر القرن الثامن عشر، هو التعليم الديني الذي تمثل في الدراسة الأزهرية، والكتاتيب المنتشرة في قرى مصر، ومدارس المساجد، والمدارس القبطية التي انتشرت في كل ربوع مصر، وكان يلتحق بها العديد من الطلاب المسلمين[٣].

على أية حال، يجب علينا الآن متابعة نظام التعليم في وادي النطرون حيث كان قاصرًا على مجموعة المكاتب (الكتاتيب) التي انتشرت في أنحائه، ومجموعة من المدارس التي وجدت في بعض القرى، والمدن الكبرى القريبة منه مثل مدينتي دمنهور وطنطا[٤].

---

(١) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج١، ص ٣٦.

(٢) نفسه: ص ٧٦.

(٣) ماهر حسن: مقال وعنوانه «قصة التعليم في مصر»، جريدة المصري اليوم، بتاريخ١٧ أغسطس٢٠٠٧م.

(٤) معية سنية تركي: دفتر ٦٣، أمر كريم إلى مديري مدارس البحيرة والغربية، وثيقة ٧٥، ٢ جماد الآخر ١٢٥١هـ/ ٢٥ سبتمبر ١٨٣٥م، ص ٦٩.

وقد اعتمد التعليم الأولي في الكتاتيب على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث، وتعلم الأولاد مبادئ القراءة والكتابة وبعض فنون الخط ومبادئ الحساب[١] وكان يقوم بذلك معلم الكتاب (المؤدب أو الفقية) ويساعد العريف في تعليم الأولاد بمعاونة الأطفال المتخلفين عن زملائهم بالإضافة إلى مهمته في مراجعة ألواح الأطفال في حالة غياب المؤدب[٢] ومن أشهر الكتاتيب الكتاب الملحق بالجامع الكبير بالطرانة[٣] وكتاب الشيخ خطاب بالبريجات[٤]

وكان للأقباط أيضًا مثل المسلمين بعض الكتاتيب الخاصة بهم في قرى وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر، وكان المنهج الدراسي بسيط إلى حد ما، فهم يتعلمون مبادئ الدين المسيحي، ومبادئ اللغتين القبطية والعربية، فضلًا عن تعلمهم العلوم مثل علم الحساب، وهو ما يفسر أن غالبية الوظائف الكتابية الحسابية كانت في يد الأقباط في نفس القرى، ومن الجدير بالذكر أن هناك بعض الكتاتيب فتحت أبوابها أمام أولاد المسلمين لتعلم الحساب للالتحاق بالإدارة المالية[٥] واشتهر منها الكتاب الملحق بكنيسة السيدة العذراء بالطرانة[٦] والكتاب الملحق بكنيسة الأنبا بيشوي بكفر داود[٧] واقتصر التعليم في هذه الكتاتيب سواء الخاص منها بالأقباط أو المسلمين على الذكور فقط دون الإناث[٨]

---

(١) السيد رجب حراز: السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال البريطاني ١٥١٧/ ١٨٨٢م، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٠م ، ص ٧٥.

(٢) محكمة البحيرة: س٩٢، م ٣٨٤، ٧ شعبان ١٢٧١هـ/ ٢٥ إبريل ١٨٥٥م، ص ١٢٧.

(٣) رياض سوريال: المجتمع القبطي في مصر في القرن التاسع عشر، مكتبة المحبة، القاهرة ١٩٨٤م، ص ١٥٨.

(٤) محكمة البحيرة: س ٢٧، م ٣٤٢، غرة رمضان ١٢١٥هـ/ ١٦ يناير ١٨٠١م، ص ١٦٠.

(٥) مديرية البحيرة: س ٨٩، وارد دواوين من الإسكندرية، وثيقة ٣١١، غرة جماد الأولى ١٢٧١هـ/ ٢٠ يناير ١٨٥٥، ص ١٨٩.

(٦) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ٩٩٣، ١٦ ربيع الآخر ١٢١٦هـ/ ٢٥ أغسطس ١٨٠١م.

(٧) نفسه: وثيقة رقم ٦٧٦، ٢٢ ذي القعدة ١٢٩١هـ/ ٣١ ديسمبر ١٨٧٤م.

(٨) إدوارد وليم لين: المرجع السابق ، ص ٧٣-٧٤؛

Dowling Theodore, Edward: The Egyptian Church, London 1909 . P.12

واعتمدت ميزانية هذه الكتاتيب على الأوقاف والمبالغ الضئيلة التي يدفعها أهالي الأولاد، لدفع رواتب المؤدب والعريف، وأيضًا نفقات الفرش وترميم المباني، وتقديم الإعانات المالية والعينية من ملابس وطواقي وأحذية للأطفال الفقراء[١]

وكذلك تأثر وادي النطرون، كما تأثرت مصر كلها بالنهضة التعليمية التي قام بها محمد علي (١٨٠٥- ١٨٤٨م) فقد عمل على تنظيم التعليم بإنشاء مدارس للتعليم الابتدائي سنة ١٨٢٣م، عرفت باسم المبتديان أي الابتدائي، وبلغت حوالي ٥٢ مدرسة بالمديريات، من بينها واحدة بالبحيرة التابع لها الوادي، مما أعطى الفرصة لأبناء الوادي للتعلم فيها، وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات يتعلم التلميذ خلالها القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والدين[٢] وبعدها يلتحق بالمدرسة التجهيزية التي أنشئت سنة ١٨٢٥م، وكانت مدة الدراسة بها أربع سنوات، وهي التي تؤهله للالتحاق بالمدارس العليا مثل الحربية والطب المهندسخانة[٣] وعندما افتتحت مدرسة الزراعة بنبروه[٤] سنة ١٨٣٦م لإدخال الأساليب الحديثة في الزراعة، والتوسع في زراعة شجرات التوت بالبحيرة، لتربية دودة القز لإنتاج الحرير الطبيعي، سارع أبناء الوادي للالتحاق بها[٥]

ولكن سرعان ما تدهور هذا النظام التعليمي في عهد عباس الأول، وفي عهد سعيد الذي ألغى بعض المدارس بعد توليه الحكم[٦] وعندما تولى إسماعيل (١٨٦٣- ١٨٧٩م)

---

(١) محكمة البحيرة: س ١٥٣، م ٨١، ٢٠جماد الأول ١٢٩٥هـ/ ٢٠ فبراير ١٨٧٧م، ص ٩٦-٩٧.

(٢) سامي سليمان محمد السهم: التعليم والتغيير الاجتماعي في مصر في القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠٠٠م، ص ٢٣٢.

(٣) نفسه، ص ٢٣٦- ٢٣٧.

(٤) نبروة: قرية وردت في قوانين ابن مماتي من أعمال السمنودية، وهي تابعة الآن لمديرية الغربية.

(٥) معية سنية تركي: دفتر ٧٠، من الجناب العالي إلى مختار بك ناظر المدارس، وثيقة ٦٥٢، ٦ جماد الثاني ١٢٥٢هـ/ ١٨ سبتمبر ١٨٣٦م، ص٢١٢.

(٦) أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في مصر في نهاية حكم محمد علي إلى أوائل حكم توفيق، ج٢، مطبعة النصر، القاهرة، سنة ١٩٤٥، ص ٢١٤-٢١٦.

قام بإصلاح التعليم فتأثر الوادي، كما تأثرت مصر كلها بإصلاحاته لمدرسة الطب والحربية وافتتاحه لمدرسة الطب البيطري سنة ١٨٦٤م، والزراعة بالعباسية ١٨٦٧، والإدارة والحقوق والمساحة والمحاسبة سنة ١٨٦٨م والألسن ١٨٦٩م، ودار العلوم ١٨٧٠[١].

ومنذ الاحتلال البريطاني لمصر ١٨٨٢م وحتى نهاية فترة الدراسة، سيطرت سلطات الاحتلال على التعليم في مصر، فجعلته بمصروفات عالية، فتأثر أبناء الوادي الفقراء، لأن التعليم أصبح قاصرًا على الأغنياء دون غيرهم[٢].

وقد استفاد وادي النطرون من تعليم أبنائه في هذه المدارس، فاعتمدت الإدارة المركزية عليهم في شغل بعض الوظائف الإدارية بالوادي، فعملوا ككتبة وصيارفة ومساحين وأمناء ونظار شون، فاشتهر من الكتبة ميخائيل صليب[٣] ومحمد عيسى[٤] ومن الصيارفة عوض أيوب[٥] وفانوس نده[٦] وأحمد خليل[٧] ومن المساحين جبرائيل ميخائيل[٨] وحسن على[٩] ومنهم من عمل أمينًا لمخازن شونة الطرانة ثم ناظرًا عليها مثل إبراهيم أفندي سعد[١٠].

---

(١) سامي سليمان السهم: المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٢) جرجس سلامة: أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر (١٨٨٢-١٩٢٢)، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٦، ص ٤٧-٤٩.

(٣) مديرية البحيرة: س ٨٣٥، وثيقة ١٠٩١، صادر إلى سايرة، ١٩ شعبان ١٢٦٤هـ/ ٢١ يوليو ١٨٤٨م، ص ١١٣٠.

(٤) نفسه: س ١٠٣، وارد إلى قسم النجيلة، وثيقة ١٢٨٩، ٣ ربيع الآخر ١٢٨٥هـ/ ٢٤ يوليو ١٨٦٨، ص٥٤.

(٥) ديوان خديوي: محفظة ١٤٦، دفتر ١٩٧، من المجلس العالي إلى الديوان الخديوي، وثيقة ٢٤٦، ١٧ من ذي القعدة ١٢٤٩هـ/ ٢٨ مارس ١٨٣٤، ص١٦٧.

(٦) مديرية البحيرة: س ١٢١٦، تصاريف، قسم النجيلة، رقم ٤٧، لسنة ١٨٩٣م، ٢٢.

(٧) محكمة النجيلة: س ٧٣٠، م ٦٥، ٢٧ رجب ١٢٩٤هـ/ ١١ إبريل ١٨٧٧م، ص ١٥.

(٨) محكمة البحيرة: س ١٤٧، م ١٨، ٢٥ محرم ١٢٩٣هـ/ ٨ فبراير ١٨٧٦، ص ٢٩.

(٩) مديرية البحيرة: س ٣٦٥، ج٧، صادر الفروع لقسم النجيلة، وثيقة ٩٠٦، ١٣ من ذي القعدة ١٢٧٤هـ/ ٢٥ يونيو ١٨٥٨م، ص ٢٢.

(١٠) محكمة النجيلة: س ٧٢٩، م ٣٢٧، ٩ رمضان ١٢٩٣هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٨٧٦، ص١٠١.

كما ساهم أبناء وادي النطرون بعلمهم في الحفاظ على الصحة العامة، وتطوير شبكة الري بالوادي، فاشتهر في الصحة الحكيمباش عبد الله أفندي أبو زيد[١] وعبد الله حسن البيطري[٢] ومحمد جاد وعبد الرحمن أفندي المعاونين بمكتب صحة كفر داود[٣] واشتهر في الري الباشمهندس محمد عبد الوهاب ورضوان أفندي[٤].

وفي مجال الشعر اشتهر محمد الشاعر من عربان أولاد علي[٥]، واشتهر بالإنشاد الديني وقراءة القرآن الشيخ أحمد رزق زعطوط[٦] وفي مجال الألحان والترانيم الكنسية القبطية ذاع صيت القمص روفائيل والقس تاوضروس البراموسي بين أديرة وادي وكنائس الوادي[٧].

الاحتفالات والأعياد:

ذكر الرحالة بيلون اهتمام المصريين بالاحتفالات والأعياد حيث ذكر قائلًا: "لا توجد أمة متمسكة بتقاليدها وتراثها مثل الأمة المصرية"[٨]، حيث كان لكل من المسلمين والأقباط في مصر أعيادهم، مثلما كان لأهالي وادي النطرون خلال فترة الدراسة، مع وجود بعضٍ مما يخص الوادي، وكان يحتفل بها كل منهما على طريقته، وتبدأ أول احتفالات المسلمين بيوم

---

(١) مديرية البحيرة: س ٩٨٠، ج١، وارد الفروع من قسم النجيلة، وثيقة ١، ٢٤ محرم ١٢٧٤هـ/ ١٣ سبتمبر ١٨٥٧م، ص٤.

(٢) محافظ الأبحاث: محفظة ١٤١، دفتر ١٩٠٤، أوامر، أمر كريم إلى مديرية البحيرة، رقم ٩، ١٧ ذي الحجة ١٢٧٩هـ/ ٥ يونيو ١٨٦٣م، ص ١١.

(٣) مديرية البحيرة: س ١٢٩٢، كشف استحقاقات، سنة ١٨٥٦م، د، ص.

(٤) نفسه.

(٥) مجلس الأحكام: س ٧/ ٩/ ٧، عرضحالات البحيرة، رقم ٨، ١١ جماد الثاني ١٢٧٦هـ/ ٦ يناير ١٨٦٠م.

(٦) محكمة البحيرة: س ٢٥٠، م ٧، ٢٧ صفر ١٣٠٥هـ/ ١٤ نوفمبر ١٨٨٧، ص.

(٧) نفسه: س ٩٨، م ١٨٩، ٣ ذي القعدة ١٢٧٦هـ/ ٢٣ مايو ١٨٦٠م، ص ١٣٨؛ وثائق دير السريان، وثيقة رقم ٦٥٢، ٢٥ رجب ١٢٩٣هـ/ ١٧ أغسطس ١٨٧٦م.

(٨) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص٨٥.

«عاشوراء»وهو اليوم العاشر من شهر محرم، وجرت العادة في هذا الموسم بالتصدق على الفقراء والمساكين، وكان من أهم مظاهر هذا الاحتفال ضرورة ذبح الدجاج وطهي حبوب القمح وإعداده في أطباق تسمى "عاشوراء" وهي العادة التي ما زالت باقية حتى الآن[١].

يواكب الاحتفال بالمولد النبوي في الثاني عشر من ربيع الأول، إحضار قراء القرآن والمنشدين، بالإضافة إلى إقامة حلقات الذكر، وكانت قاصرة على زوايا الصوفية[٢] أما الاحتفال بأول شهر رجب فكان من المواسم المهمة، وكان من أبرز صور الاحتفال شراء تماثل الحلوى للأطفال، كما أن الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج كان يشبه الاحتفال بأول رجب وليلة النصف من شعبان[٣] أما الاحتفال برؤية هلال رمضان، فبعد تحقق الرؤية كان الأطفال يحملون بعد صلاة المغرب الشموع والمشاعل والفوانيس، وكانت مظاهر الاحتفال تستمر طوال الشهر الكريم، وما تزال حتى يومنا هذا[٤]. وأكد بالرن أن المصريين «يحرصون في رمضان على توزيع اللحم على الفقراء ويسمحون لأطفالهم بالخروج والزيارة»[٥]. وذكر شابرول قائلًا: «ينام الأغنياء نهارا حيث لا يسمح الدين بالأكل ما دامت الشمس في الأفق، ويتناولون طعامهم عند قدوم الليل»[٦].

وكان من أهم مظاهر الاحتفالات الدينية عند المسلمين بمصر كلها بما فيها وادي النطرون خلال القرن التاسع عشر الاحتفال بالعيدين عيد الفطر وعيد الأضحى، والاحتفال بهما يكاد

---

(١) سعيد محمد حسن الملط: المرجع السابق، ص ٥٥.

(٢) محافظ الأبحاث: محفظة ١١٩، معية سنية تركي، دفتر ٤٧١، وثيقة ١٠٤، ١٢ ربيع أول ١٢٦٨هـ/ ٥ يناير ١٨٥٢م.

(٣) إداورد وليم لين: المرجع السابق، ص ٤٨٢-٤٨٣، أمينة النجار، المرجع السابق، ص٢٠٤.

(٤) عبد الرحمن الجبرتي: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: عجائب الآثار والأخبار، ثمانية أجزاء، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ج٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٢٢٢.

(٥) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص٨٥.

(٦) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج١، ص ١٦٢.

يكون متطابقًا، فيما عدا بعض الاختلافات الطفيفة، ففي عيد الفطر كانت النساء يبدأن في الاستعداد للعيد بتجهيز الكحك قبل العيد بعدة أيام، ومع طلوع نهاره يتوجه الرجال لأداء صلاة العيد، فيهللون ويكبرون، وبعدها يتوجهون إلى المقابر لزيارة موتاهم[١] وفي عيد الأضحى يقوم بعض الأغنياء بذبح الأضاحي والتصدق بها على الفقراء[٢] ، كما ذكر فيلامون بالفواكة أن المصريين يحرصون في أعيادهم واحتفالاتهم على تقديم الطعام حيث وصف لنا قائلًا: «لديهم عادة جميلة إذا يجلسون على الأرض ويأكلون. وطعامهم مطبوخ بالسمن أو الزيت وهم مغرمون ويأكلون بعد انتهاء الطعام الشمام والبطيخ»، ولديهم تقليد جميل «فعندما ينظر إليهم أحد عند الأكل لا بد وأن يعطوه من طعامهم»[٣]. كما كان أهالي الوادي يرتدون أفخر الثياب، ويتبادلون الزيارات والتهاني بالعيد[٤].

أما فيما يتعلق بالاحتفالات القاصرة على وادي النطرون، عند المسلمين، فتمثلت في الاحتفال ببعض الأولياء الصالحين، فاشتهر منها الاحتفال بذكرى الشيخ خطاب[٥]، وسيدي أحمد الزواوي[٦] وسيدي خضر الأنصاري[٧].

كذلك تعددت الاحتفالات والأعياد عند الأقباط، فكان منها سبعة أعياد تعرف بالأعياد السيدية الكبرى، وسبعة أخرى تعرف بالأعياد السيدية الصغرى، وهذه الأعياد مرتبة على شهور السنة القبطية، والأعياد الكبرى هي «عيد البشارة» ويحتفلون به في التاسع والعشرين من

---

(١) إداورد وليم لاين: المرجع السابق، ص ٥٠٢.

(٢) سعيد حسن الملط: المرجع السابق، ص ٤٧.

(٣) إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص٩٢.

(٤) نفسه: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص٢٨٧.

(٥) محكمة البحيرة: س ٢٣، م ١٧٣، ٣ ربيع آخر ١٢٠٨هـ/ ٨ نوفمبر ١٧٩٣م، ص ٩٠.

(٦) مديرية البحيرة: س ١٠٣، صادر الدواوين إلى سايرة، وثيقة ٣٦، ١١ شوال ١٢٧٤هـ/ ٢٥ مايو ١٨٥٨م، ص ١١٢.

(٧) محكمة البحيرة: س ٢٨٧، ج١، م ٢، ٢٩ جماد أول ١٣١٥هـ/ ٢٦ أكتوبر ١٨٩٧م، ص١.

شهر برمهات[١] وعيد «أحد الشعانين» ومعناها بالعربية التسبيح، يكون في الأحد السابع من الصوم المقدس، ومن مظاهر الاحتفال به أن يخرج الأقباط في صباح هذا اليوم حاملين سعف النخيل وأغصان الزيتون احتفالًا بذكرى دخول السيد المسيح مدينة أورشليم[٢] وعيد القيامة ويكون الاحتفال بهذا العيد يوم الأحد، وهو ذكرى قيامة السيد المسيح من بين الأموات كما يعتقد الأقباط[٣] ويسبق هذا العيد صيام هو أطول أيام الصيام عند الأقباط، وقد ذكر شابرول قائلا: «الصيام السابق لعيد القيامة هو أطولها جميعًا، وهو كذلك أشدها مشقة، ويبلغ طوله ٥٥ يوميًّا. ولا يمكن للمسيحي طوال هذه المدة أن يتناول سوى وجبتين في اليوم، ويمتنع تمامًا عن تناول اللحوم والأسماك وكل ماله روح على وجه العموم. وتأمر الكنيسة بأن يمتنع الناس عن إدخال أي شيء إلى أفواههم حتى ولو كان دخان النارجيلة قبل الظهيرة، وهي موعد الوجبة الأولى»[٤].

وبعده مباشرة يوم الإثنين كان المصريون من المسلمين والأقباط يحتفلون بعيد شم النسيم[٥] وأيضًا من الأعياد الكبرى عيد الصعود وهو ذكرى صعود السيد المسيح إلى السماء، وعيد العنصرة (الخمسين)، وهو يوم الخمسين بعد القيامة المجيدة ويسمى عيد «البنطيقوستي»[٦] ويكون في السادس والعشرين من شهر بشنس، أما العيد السادس فهو "عيد الميلاد" ويكون في التاسع من شهر كيهك (٧ من شهر يناير) وهو اليوم الذي ولد فيه السيد المسيح في بيت لحم (قرية في فلسطين)[٧]، وذكر شابرول أن هذا العيد يسبقه ٤٣ يوميا صيام[٨]، وآخر الأعياد

---

(١) مراد عبده فرج: القراءات اليومية في السنة القبطية، شركة الكاتب المصري، ط١، القاهرة سنة ٢٠٠٦، ص٨.

(٢) سعيد حسن الملط: المرجع السابق، ص ٣٧-٣٨.

(٣) مراد عبده: المرجع السابق، ص ٩.

(٤) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج١، ص ٣٤.

(٥) سعيد حسن الملط: المرجع السابق، ص ٣٨.

(٦) البنطيقوستي: كلمة يونانية معناها عيد الخمسين، انظر: سعيد حسن الملط، المرجع السابق، ص٣٩.

(٧) نفسه.

(٨) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج١، ص ٣٤.

الكبرى هو «عيد الغطاس» (الظهور الإلهي)، ويكون في الحادي عشر من شهر طوبة، وهو ذكرى تعميد (التغطيس في الماء) السيد المسيح على يد يوحنا المعمدان (النبي يحيى عليه السلام) في مياه نهر الأردن[١].

أما الأعياد السيدية الصغرى، فهي عيد الختان يقع هذه العيد في السادس من شهر طوبة، وعيد عرس قانا الجليل، وعيد دخول السيد المسيح الهيكل، وعيد خميس العهد، وعيد أحد توما (الأحد الجديد) وعيد دخول السيد المسيح أرض مصر، ويقع هذا العيد يوم ٢٤ بشنس وعيد التجلي، يوافق يوم ١٣ مسرى، وكان الأقباط في وادي النطرون يحتفلون بهذه الأعياد مثلما كان يحتفل بها المسيحيون في مصر بصفة عامة[٢].

أما فيما يتعلق بالاحتفالات القاصرة على وادي النطرون عند الأقباط فهي الاحتفال بذكرى بعض القديسين، فاشتهر منها احتفال دير السريان بصعود جسد السيدة العذراء إلى السماء يوافق مسرى/ ٢٢ أغسطس واحتفال دير الأنبا بشوي بالقديس المسمى بها الدير، ويوافق ١٨ أبيب/ ١٥ يوليو واحتفال كنيسة الخطابة بالقديس مارجرجس[٣]. ومن الجدير بالذكر أن هذه الاحتفالات والأعياد الدينية عند كل من المسلمين والأقباط، كانت تشهد وفاقًا ومحبة بتبادل التهاني والزيارات فيما بينهما، وما زالت حتى الآن[٤].

وذكر شابرول أن الأقباط في مصر يمارسون سر الاعتراف[٥] وهم يشتركون في هذا الطقس مع المسيحيين عمومًا، كما ذكر أيضًا قائلًا: «ثمة عادة خاصة بالأقباط تبدو مناقضة تمامًا أو على الأقل غريبة عن مذهب المسيح، تلك عادة الختان للجنسين. وبالرغم من أن هذه العملية

---

(١) نفسه.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: الراهب القمص سمعان السرياني، الأعياد السيدية الكبرى، مطرانية بني سويف والبهنسا، سنة ١٩٩٢؛ مراد عبده، المرجع السابق، ص ٨-١٢.

(٣) وثائق دير السريان: وثيقة رقم ١٣٦٠، ٨ يناير ١٨٩٦؛ رياض سوريال، المرجع السابق، ص ٢٤٨.

(٤) إلهام ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص ٢٨٧.

(٥) سر الاعتراف: هو أحد أسرار الكنيسة السبعة وهي: سر المعمودية، والميرون، والتوبة والاعتراف، والأفخارستيا، وسر مسحة المرضي، والزواج، والكهنوت.

ليست –فيما يبدو –إلزامية بالنسبة لكل الأقباط، فإنهم مع ذلك يخضعون لها إما بفعل الاعتياد وإما بفعل الأفكار المسبقة، وتصر الأمهات على ضرورة ختان أطفالهن، اذ يتصورن أن أبنائهن لا يكونوا صالحين للإنجاب ما لم يمروا بهذا الأمر المؤلم»[1].

وهكذا تبين لنا مما سبق بعض النتائج عن الحياة الاجتماعية في وادي النطرون كما صورها الرحالة، منها التطور السكاني في وادي النطرون،من حيث زيادة الكثافة السكانية وزيادة معدلات النمو السكاني، وقد يرجع ذلك إلى تحسن الخدمات الصحية، كما أن السكان تنوعت فئاتهم فمنهم أعيان الريف والفلاحون والعربان والشوام والمغاربة والأوروبيون، كما كان للنشاط الاقتصادي أثر كبير في الزحف العمراني للقرى، وأدي ذلك إلى إنشاء قرى جديدة مثل قرية زقيق وعزبة الطرانة والهوكرية، وبني سلامة.

كما نستنتج أن سكان وادي النطرون استطاعوا أن يحافظوا على عاداتهم وتقاليدهم، وأضافوا ما يتفق مع طبائعهم؛ كما عبروا في أفراحهم عند الزواج عما لمسناه من بساطة ورضا، وكانوا يعطون المرأة في حالة طلاقها كامل حقوقها، مما يدل على مدى احترام الرجل لهذه الحقوق، كما احتلت المرأة مكانة يتضح من خلالها أنها لم تكن حبيسة المنزل أو كمًّا مهملًا خاصة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ولكنها خرجت للحياة العامة والمشاركة المجتمعية.

كما اتضح لنا دور المؤسسات الدينية وأهميتها في الارتقاء بالقيم الدينية والروحية، كما كان للنصح والإرشاد الديني دور في انخفاض معدلات الجرائم، وكذلك كان للمؤسسات التعليمية دور رئيسي في تعليم أبناء الوادي، مما أدى إلى شغلهم بعض الوظائف الإدارية وخدمة مجتمعهم، كما أكد الرحالة على ممارسة سر الاعتراف – أسرار الكنيسة السبعة – وعادة الختان للجنسين، وقد عبرت الاحتفالات والأعياد عن مدى الترابط الاجتماعي، من خلال تبادل الزيارات والتهاني في الأعياد وبعض المناسبات الاجتماعية.

(١) تأليف علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ج١، ص ٣٥.